المعجم وثقافة العولمة
قراءة في لغة «الصحافة»
بين دلالة المعجم وتأويل الدلالة

(القسم الثاني)(*)

د. الحبيب النّصراوي
(المعهد العالي للغات بتونس)

كثيرا ما يجد قارئ الصحف العربية نفسه بين ضربين من الخطاب: ضرب يستمدّ مادّته الصّحفيّة من مصدر أساسيّ هو الإعلام الغربيّ؛ وضرب يستمدّ مادته من مصدر ثانويّ هو الإعلام المحلّيّ. فيتداخل بسبب ذلك مستويان لغويان من الخطاب:

-مستوى قائم على التّرجمة من اللغات الأجنبية: يظهر ذلك في بنية اللغة المقترحة: المفردة، والتركيب، والأسلوب، وكذلك في مستوى البنية الفكرية أي: المفهوم، والتأويل..

-ومستوى نابع من اللغة المحليّة: يبدو أكثر وثوقا بالرّصيد التقليديّ، وما يظهر فيه من تجديد لا يخرق في الغالب قواعد العربيّة في التّوليد. يظهر ذلك في بنية لغوية وفكريّة محافظة عادة.

هذا الازدواج في مصادر الخطاب الصحفيّ ومستوياته يؤدّي حتما إلى نتائج لا تقف عند ما ذكرنا من مجال الدّرس اللغويّ، بل تتعدّاه إلى تبنّي أساسيات الفكر الغربيّ في خضمّ صراع حضاريّ تلعب فيه القوى الأعظم على معجم مرن من مفردات أو مصطلحات مائعة لا يمكن الوقوف على دلالاتها القصوى إلا من خلال

(*) انظر القسم الأوّل في دراسات أندلسيّة ، ع 38، 2007، ص 115 .

قراءة عميقة قادرة على استيعاب ما تقدّمه من مضامين؛ وتأويل ما تروّجه من مفاهيم. حتى بات تحديد المعنى (في هذا الظرف العالميّ الجديد الذي تستخدم فيه جميع الشّعوب معجما واحدا وإن بلغات متعدّدة) أمرا على جانب كبير من الأهميّة.

فالصّعوبة تكمن في توحيد مضمون الخطاب لا الخطاب نفسه. فقد نجحت قوى العولمة في جعل العالم يستخدم تقريبا نفس المصطلحات، ولكنّها لم تنجح في محو فوارق التفكير ومرجعيات الفهم.. «والنتيجة أنّنا حينما نتكلّم عن العالم في لغتين مختلفتين، فنحن لا نتكلّم أبدا عن شيء واحد»[1]. من هنا تأتي الاستحالة النظريّة لانتقال المصطلحات ومفاهيمها بين اللغات، فإنّ كلّ نظام لغويّ ينطوي على تحليل للعالم الخارجيّ خاصّ به يخالف تحليل بقية اللغات، أو يخالف مراحل أخرى من نفس اللغة[2]. ولهذا فإنّ انتقال المصطلحات ومراجعها بين اللغات يفترض انتقالا آخر في الواقع من عالم التجربة الخاصة بمتكلمين ما إلى عالم تجربة متكلمين آخرين. وإنّنا لنلاحظ هذا في استعمالاتنا اليومية للكلام، إذ لا يعني توحيد العلامة توحيد دلالتها. فإنّ كثيرا ممّا يصيب الحياة السياسية وحتى الفكرية والاجتماعية من خلافات، وصراعات وربّما حروب ومشقّات، وآلام، مرجعه إلى أنّنا لا نفهم بصورة واحدة معنى ما يستخدم من مصطلحات أو مفاهيم، أو ما يقال لنا، أو ما نسمعه أو ما نقرأه. فالصّعوبة في إدراك المعنى الدّقيق، والخلاف عليه ليس مقصورا على اللغة الأدبية أو النّصوص القديمة في لغتنا ولا على لغة أجنبيّة أخذنا منها بنصيب، إنّه ليتجاوز ذلك إلى لغتنا التي نستعملها في حياتنا اليومية التي لا نجيد من اللغات مثلها» [3].

من هنا كان على القارئ أن يستخدم آلية التأويل، وألاّ يمرّ على اللغة مرورا عاديا كما لو كانت المفردات والمصطلحات المستعملة متّفقا عليها وتعكس فكرا

(1) Mounin : Les problèmes théoriques de la traduction, p.74.

(2) نفسه، ص74.

(3) محمود السعران: «علم اللغة» ص265.

واحدا ينهل من ثقافة جامعة. إنّها مشحونة اليوم بعديد الرؤى وفي النهاية ستتغلّب رؤية الأقوى. لذا تبدو القراءة -وهي تفاعل، بلا شكّ، بين قطبي الحدث الكلامي- استراتيجية مهمّة تكشف عن المقاصد المبثوثة أو المضمرة طيَّ الكلام، في مستوى أسلوبه أو تركيبه أو معجمه. وذلك باستنطاق عناصر الحدث الكلامي نفسه، أو بالبحث في مرجعيّات من خارج اللغة فاعلة فيه وذات صلة بتأويله وردّه إلى مصادر فكريّة وأنساق ثقافية معيّنة.

1-التأويل:

في رصيد لغة ما ألفاظ واسعة الانتشار، ولكنّها عند النظر المليّ فيها نرى أنّها تقع في منطقة ضبابية بل غامضة يسهل دخولها في أبنية اللغة بدلالات شديدة التعميم بعيدة التردّد. ومن أمثلة ذلك أسماء الأعلام، وعبارات التوقّع والإمكان، والكلمات المقترضة[1]. ثم انضاف إليها اليوم ما أصبح يعرف بمصطلحات الحداثة، أو فلنقل «مصطلحات العولمة». وهذا قد جعل في الحقيقة، درس اللغة في جانبها المعياريّ أو حتى الوصفيّ بعين منفصلة عن المحيط النّفسي والاجتماعيّ أمرا مخادعا إلى حدّ ما.. فإذا كان ذلك صحيحا خاصة فيما يتّصل بدراسات الأصوات والصرف والنحو قصد فهم النّصوص دون الاهتمام بتأثير أداء الوظيفة الاجتماعيّة للّغة، فإنّه ليس كذلك اليوم في ظلّ النّموّ الفجائيّ في مجال اللغة وقوّتها. فقد ظهر ميل إلى معرفة عمل اللغة بالنسبة إلى سلوك الفرد والجماعة، فبتنا في حاجة إلى أبحاث تُكرَّس لموضوع الدلالة الاجتماعية ومعرفة أفضل لكيفيّة عمل اللغة من خلال الانتفاع بالسيل الهائل من وسائل الاتصال اللغويّ.

ولمّا أصبح للّغة هذا الخطر المتعاظم، بدأ الباحثون يعترفون بأنّ وظائف اللغة لا يمكن أن تفهم إلا إذا نظرنا إلى اللغة باعتبارها حقيقة في المجتمع[2]. (بعد أن

(1) Lehmann : Introduction à la lexicologie, p. 5.

(2) م. م. لويس : اللغة والمجتمع، ص267.

كانت تعدّ مستوى واحدا فصيحا غير قابل للتصرّف، ينبغي أن يراعى بقواعد النحو والمعجم). فقد عاد بعض اللسانيين لتبنّي الرأي الأفلاطونيّ القائل بتساند الكلمات والعمليات العقلية فلا تفكير بلا كلمات[1]. والذين عالجوا اللغة بهذه الطريقة ركّزوا على الأثر الشامل لأفكار المتكلم في اللغة التي يستعملها. ولذا رأوا أنّ من المُمهّدات الضرورية -قبل البدء في التفكير في اللغة- تحليل العقل الرمزيّ. وهذا بلا شكّ يستدعي جهدا كبيرا، إذ ينبغي الاعتراف بأنّ المتكلّم ليس وحده عاملا مؤثّرا في نشاط اللغة بل السّامع أيضا. وأكثر المسائل ظهورا في طبيعة التفكير هي في الغالب مسائل لغوية.

وهكذا يتّضح أنّنا إذا أردنا أن نفهم الفكر والإنتاج الفكريَّ فالواجب أن ندرس اللغة. وإذا أردنا أن ندرس اللغة فعلينا أن ندرس عملها في المجتمع[2]. فإنّ توجيه استعمال الاتّصال اللغوي يتطلّب فهم هذه الأداة: إنّها منهج جماعيّ ينمو بنموّ المجتمعات. وتعقّده اليوم جزء من تعقّد الحياة الاجتماعية. فقد زادته الآلة قوة فانفتحت إمكانات أرحب لاستعماله.. وهو ما دعا القوى الفاعلة اليوم إلى التّركيز على طرائق التحكم في الاتّصال اللغوي لسرعته وشموله في مناهجها الاجتماعية والسياسيّة والعسكرية والاقتصادية. وهو ما يستدعي منّا الحذر في التعامل مع اللغة المستخدمة في مجالات الإعلام والسياسة وما شابهها دون التسلّح بأدوات الفهم وآليات التأويل.

(1) نفسه، ص270. (فمن دلائل العلاقة بين الكلمات والأفكار أنّ اللغة هي أساسا اتصال والمراد بها سلوك المتكلم الذي ينوي أن ينقل أفكاره إلى الآخرين. ولعلّ سبب إهمال الدراسات قديما هذه العلاقة هو تركيز البحث اللغوي على النصّ الأدبي وهو في الغالب نصّ مكتوب وقديم، فكثيرا ما كان الباحثون يتجاهلون كون هذا الأدب كان مرة نطقا حيّا لقوم أحياء. نفسه، ص271).

(2) نفسه، ص276. (بدأ يسبرسن كتابه اللغة (Le Langage) بقوله: «إنّ التعريف الوحيد غير المتهم للكلمة هو أنها عمل إنساني.. له بالفعل أو بالقوة أثر في بعث فكرة في ذهن فرد آخر» ص275. كما أكّد ماكس مولر أنّ وظيفة الكلمات إنما هي التأثير في أفكار الآخرين لا القيام بنقل الأفكار نقلا مجرّدا. ص276.)

والتأويل الذي نقصد ليس هو السّعي إلى تخريجات بلاغيّة أسلوبيّة أو معجميّة نحويّة، بل هو البحث في كيفية معالجة المتكلّم لمفردات اللغة باعتبارها وحدات معجميّة توجّه إلى المتلقّي لاكتشاف بنيتها وصولا إلى دلالاتها. فالكلمات لا تخلو من تراكم فكري وحضاريّ لمبدعها، ولا بدّ حينئذ من إماطة اللثام عمّا تراءى وراء استعمالاتها الخاصة من دلالات مضمّنة وإيحاءات تخفى عن الإدراك المباشر وذلك بأدوات ذهنيّة تمكّن من السيطرة على الكلام بواسطة العقل.. وهو دور التأويل في إدراك فنّ القول وتيسير جني ثمار الإبداع اللغوي[1].

فإنّ المتكلم ليس في الحقيقة محايدا[2] كما سنرى، ولكنّه يقدّم رؤية شاملة هي التي يعنينا اكتشافها من خلال البحث عن وسائله التّأويليّة لاكتشاف أسرار اللغة. فقد يقيم لغته على مستويات عدّة يتداخل فيها الفصيح ربما بغريبه ومتروكه مع معجم مستحدث يكوّن مفرداته مولّد ومُقترَض من لغات بعينها وحتى عاميٌّ.. وفي ذلك من الدّلالات والإيحاءات ما يتجاوز ظاهر البنية اللغوية بمستوياتها المتداخلة إلى محاولة تمرير خطاب ما لا يمكن فهمه إلا «بتقصي مستويات اللغة وجدولة انزياحاتها، وما أشكل من دلالاتها فغمض غموضا مولِّدا لإيحاءات ورموز قد تمثّل الغرض الأساسيّ من تكوّن هذه اللغة ودرجة تبلوُرها في الاستعمال[3].

ورغم ما لهذا المنهج من مخالفة ولو في الظّاهر لمبادئ المنهج اللساني القائم على الوصف المحايد للظاهرة اللغوية عامة، لأنّه يطالب الباحث باعتماد أساليب معيارية في معالجة الظاهرة اللغوية تقوم على إطلاق أحكام تقييميّة، فهو مجبر على الانطلاق من تصوّر تصنيفيّ قائم على بعد تأويليّ قصد الوقوف على نظام اللغة المستعملة من خلال فعل الكلام. وما تعليلات النّحاة مثلا إلاّ تأويلات لشرح

(1) المسدي: ما وراء اللغة، ص140.
(2) Guilbert: La créativité lexicale, p. 81. -
(3) - نفسه، ص140.

الظّواهر اللغوية تمهيدا لتصنيفها مع مثيلاتها بهدف الكشف عن نظام اللغة وصولا إلى حكمة واضعها[1].

والخليل نفسه نراه يفترض أنّ للّغة نظاما محكما من الضروري اكتشافه. وقد عبّر عن ذلك حين سئل عن العلل التي استخدمها لتفسير الظّواهر اللغويّة بقوله: « إنّ العرب نطقت عن سجيتها وطبعها، وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتلَلْتُ أنا بما عندي أنّه علّة لما عَلَلْته منها، وإن أكُنْ أصبتُ فهو الذي التمستُ... فإن صحّ لغيري علةٌ لما عللته من النّحو هي أليق بالمعلول فليأتِ بها»[2].

هذا دليل على وعي القدامى بالمسافة بين الباحث والمعرفة، فإذا كان للغة نظام محكم، فليس تعليلاتهم إلاّ اجتهادا على طريق إدراك الحقيقة في عالم تحكمه الغائيّة: رؤية لا تكتفي بوصف الظّواهر حسب خواصّها الخارجية المشتركة، دون البحث عن تعليلات. وهذا بدوره جزء من تصوّر يعتبر العالم محدَثا لعلّة يتحتّم على الإنسان إدراكُها لفهم وظيفته فيه. في هذه الحالة لا بدّ من التأويل لاكتشاف الغاية.. وربما بالغوا في اشتراط مُحدِث في الواقع لكلّ حدث فإن لم يؤدِّه النَّصُّ اللغويّ استكملوه بالافتراضات والظّنون: فإذا وُجد الفعل في اللفظ فلا بدّ من أن يُستكمل بالفاعل، وهنا يأتي التّقدير، والإسناد لا يكمل في الواقع إلا بوجود مسند ومسند إليه، فإذا غاب أحدهما من الجملة فلا بدّ من تقديره[3]. فمصطلحات: مسند ومفعول ونعت وتمييز... هي في الأصل مفردات في اللغة تدلّ على معان عامة، ولكنّها تتحول في

(1) - فقد استفحلت ظاهرة التأويل والتقدير في التوجه البصري خاصة لتأويل نصوص اللغة وصيغها التي لا تتّفق مع القواعد النحوية. وقد تعدّدت أساليب التأويل عند البصريين. ومن أهمّها: الحذف والتقدير والشذوذ والضرورة. (عن الخثران: 213). ومن أمثلة تأويلات الخليل: سأله سيبويه عن قول بعض العرب: «كيف تصنعْ أصنعْ»، فجازوا ب (كيف)، وهي ليست من حروف الجزاء، فقال الخليل: «لأنّ مخرجها على الجزاء، ومعناها: على أيّ حال تكنْ أكنْ» (الخثران، 97).

(2) - ينظر: الزجاجي: الإيضاح في علم النحو، تحقيق: مازن المبارك، القاهرة، 1959، ص85؛ وينظر أيضا: أبو زيد، ص185.

(3) - محمد عيد: أصول النحو العربي، ص124، وكذلك : أبو زيد: إشكالات القراءة، ص 189.

البحث اللغويّ إلى مصطلحات خاصة ذات مفاهيم تحليلية. أي إنّ هذه العلامات أُعيد تأويلها لتُنْقل من مجال الكلام إلى مجال اللّغة.

وسنعمد إلى تطبيق مبادئ القراءة والتأويل على ظاهرتين من أشدّ الظواهر الحديثة تأثيرا في الواقع اللغوي العربي خاصة، وهما ظاهرتا «العولمة» و«الحرب» في العراق:

2-مصطلحات الحداثة ومفاهيمها بين المعجم والتأويل:

لا شكّ أنّ للمصطلح دورا أساسيا في تكوين المعرفة ونشرها بين المتكلّمين، ولا شكّ أيضا أنّ المعرفة تُنتج ضمن علاقة حوار ومثاقفة واتّصال مع غيرها من الثقافات أجهزةً اصطلاحية تتّفق والبنية الثقافية من ناحية، وشروط حقل المعرفة من ناحية أخرى، مع مراعاة لحاجة المتلقّي. لكنّ الثقافة الغربية بحكم نفوذها تمارس سيطرة على آلية عمل اللغة فتزيح الكثير من المصطلحات ودلالاتها عمّا كانت قد تشكلت على وفقه في الأصل. وهو ما أدى إلى اضطراب دلالات المصطلحات وتعارض مفاهيمها وشيوع الغموض والقلق لعدم استقرار المفاهيم. وهو ما يؤدّي إلى تعارض في الفهم وانقطاع التواصل.

وقد انتقل ذلك إلى اللغة العربية وإلى غيرها من اللغات المستوردة للمعرفة، فباتت تعاني أزمة حقيقية في ما يخصّ طرائق استخدام المصطلحات ومن ورائها تكريس المفاهيم:

فما يلاحظ في طريقة وضع المصطلحات هو سهولة تكوين مشتقات بعملية ائتلافية بين الجذر والصيغة، وأحيانا يكون هذا الاشتقاق استحداثا لا يعترف به المعجم، كأن يقال «عمل سياسويّ»، وهو ليس إلا طريقة للقيام بعمل على مذهب سياسيّ ما. ورغم أنّ المصطلح مجرّد نعت سبق إنتاجه في سياقات أخرى فقد بات يتمتّع بخصوصية دلالية ومن ثمّ استقلالية تركيبية، وهكذا فإنّ الرابط الدلاليّ هو الذي

ساعد على الانفصال وتحويل المركَب النّحوي تدريجيّا إلى امتلاك خصائص الوحدة المعجميّة[1].

وقد لاحظنا في هذه المصطلحات ميلا إلى استخدام «الاسمية» (la nomination) (الحرب على العراق، تنفيذ قرارات مجلس الأمن، تحرير الاقتصاد العالمي..) و»النعتية» (l'adjectivisation) (المجتمع الدولي، الشرعية الدولية، الجنديّ المحرّر..) وهما طريقتان تسمحان بتكوين مصطلحات شديدة الكثافة دون اللجوء إلى متمّمات للتوضيح[2].

إنّ هذه الطرق في التسمية ليست من خصائص اللغة المشتركة ولا اللغة الأدبية. لكن بما أنّ للصحافة الآن حقّ الوجود في المدرسة وفي البيت والإدارة.. فإنّها تقوم بتوفير مادة للتمرين على اختراع هذه الأساليب. ومع أنّ خلق مولَّدات جديدة في اللغة هو دليل حياة فيها، فإنّ عشوائية هذا التوليد قد بدأ يتشكل في خلط وغموض وسما جميع الممارسات عَمْدًا فأصبحت إشكاليَّةً من إشكالات العلاقات بين الشعوب في مستوى بلورة المفاهيم والاستقرار على رأي. ففي مستوى اللغة العربية يتجلّى الخلل في تقابل يكاد يكون دائما بين دلالة المصطلح الذي أنتجته الثقافة العربية القديمة، وشرّعه المعجم، ودلالة نفس المصطلح الذي تعيد صوغه الثقافة المعاصرة، وتعمل على انتزاعه من حقله المعرفيّ دون مراعاة لخصائصه التي اكتسبها ضمن حقله الأصليّ الأمر الذي يغذّي المصطلح بمفاهيم غريبة عن السياقات الثقافية العربية.

إنّ هذا الجهد الذي تبذله وسائل الاتّصال راجع إلى أهميّة وظيفة اللغة في العصر الحديث، حيث نعيش مرحلة سيادة الكلمة ومطاولتها لسرعة التفكير، بسبب انشغال الإنسانية جميعها بالكلمة سواء أكانت مكتوبة أم منقولة، أم حيّةً منطوقة، بعد أن تحوّل العالم كلّه إلى رقعة صالحة للكلام. ومن شروط فهم هذا التحوّل ينبغي أن

(1) - Corbin : précis de lexicologie française, p. 121.

(2) - نفسه، 124.

نفهم ما يمكن أن يؤدّي إليه.[1]

ففي العصر الحديث خَلَق احتمالُ استماع جميع الناس في نفس الوقت إلى نفس الكلمات ضربا من الانصهار بين المجتمع والكلمات، فزاد احتمال شَحْنها بمزيد من الأفكار والأحاسيس ربّما كان مسكوتا عنها قبل ظهور التّحكُّم المركزيّ في وسيلة مخاطبة الناس. وتجعل الصحافة الناس أكثر تعرّضا لسيطرة المتحكّمين في مصادر القوَّة. لكن لا تستطيع هذه القوى أن تغيّر حدود اللغة ولا وظائفها دون أن تحدث تغييرات أخرى في الفكر والإحساس والهدف تُؤثِّر في عمل اللغة في المجتمع وتجعلها محورا لصراعات وأداتها المثلى[2].

فكلمة «نازي» مثلا مثّلت رمزا مخيفا لجميع شعوب العالم ردحا من الزمن ولا تزال تثير في السامع إحساسا بالقوة العمياء والتعصّب المفرط. فبينما كانت تمثل شعارا للمعركة في الجانب الألماني، تحوّلت لدى بقية العالم لعنة واتّهاما يريد الجميع التبرّأ منه.

لكنّها كبقية رموز الاشتهاء تتّصف بالتكثيف والتحويل والتلميح: أما التكثيف فإنّ كلمة «نازي» نفسها مكثفة مختصرة وهذا ليس اعتباطا، فقد ظهرت باعتبارها مجرّد اختصار لـ (National Socialist) لكنّ استعمالها سرعان ما اكتسب قوته من منابع أعمق وأقوى من مجرّد نجاح هذا الاختصار لغويّا. إنّها في كلا جانبي المعركة اختصار أشدّ تعبيرية من المصطلح الكامل (National Socialist) [3].

(1) - لويس: اللغة والمجتمع، ص21.

(2) - نفسه، ص23.

(3) - ففي ألمانيا كان الاصطلاحان (National أو Socialist) صيحتين قويتين من صيحات التجمع في مبدإ حملة هتلر، وإنّ بعث الروح الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى أصبح ضرورة أساسية، أي الثقة بالنفس واسترجاع الماضي المجيد وتكريس كل ذلك لإعادة نهوض ألمانيا. وقد رُمز إلى كلّ ذلك في كلمة (National). لكنّ القومية لم تعد كافية، فقد لفتت الثقافة السياسية في ألمانيا الشعور الجماعي إلى مشاكل البنية والتنظيم الاقتصادي للمجتمع، ففسحت القومية المجال لغرض أوسع وهو بعث أروبا وتخليصها من الجماعات البلشفية. وأدى ذلك إلى ازدياد الهوة بين الاشتراكية القومية التي هي في المذهب النازي وبين الشيوعية الروسية. (اللغة والمجتمع، ص ص222-223).

فالرمز «نازي» بهذا التكثيف قد حجب كلا الاصطلاحين «قومي» (National) واشتراكي (Socialist)، وأهمل ما وراءهما من فكر، فانتقل الاهتمام وتحوّل الانتباه الجماعي عن الدوافع التي كانت في وقت ما سببا في ظهور هذا الفكر القومي الاشتراكي.

فكلمة «نازي» صيّرها التكثيف والتحويل في العالم كلمة رمزا ذات قدرة جبّارة على تهييج العالم ضدّ ألمانيا. فقد ساعد هذا المصطلح «نازي» على تغييب كلمتين حميمتين في الأصل وهما: «القومية» و«الاشتراكية» لأنّهما كلمتان مقبولتان ولهما وجود شرعي في ضمير كلّ إنسان. فكلمة القومية الألمانية لا تكوّن بنفسها حافزا على إثارة العداوة وكذلك الاشتراكية.

والحقيقة أنّه لو قيل آنذاك، إنّ الحرب جهاد ضد الاشتراكية أو ضدّ القومية الالمانية لأدّى هذا إلى معارضة واسعة أكثر مما يؤدّي إلى التّأييد. فكان الاسم «نازي» ناجحا باعتباره رمزا للعدوّ لأنّه ساعد على استبعاد القومية والاشتراكية من الشعور العام[1]. كما أن «نازي» اسم غريب أجنبي، فساعد ذلك على إثارة الحوافز المستكنة والكراهية فيما يتّصل بالمجهول. فالكثير من الأروبيين يعطفون على الألمان ولكنّهم لا يتسامحون مع «النازية» فقد اقترن نطق «نازيّ» بكل معاني الكراهية والاحتقار.

لكن كيف يمكن لمصطلح أن يكتسب البعد التلميحي، أي القدرة على جعلنا شاعرين بأحاسيس معيّنة رغم كونه لا يمثّلها تمثيلا مباشرا، ممّا يضيف غنى إلى محتوياته؟

لا شكّ أنّ كلّ رمز كلاميّ عام مثل هذا يكتسب الكثير من القدرة التلميحية من الصورة التي تنمو حوله. إنّ الصور في يومنا هذا هي التي تعطي الكلمات كثيرا من محتوياتها التأثيرية، وعلى الأخصّ هذه المحتويات البعيدة عن التعبير اللغوي التام. فالذي لا يمكن أن يقال بصراحة يمكن أن يستدعى إلى الذّهن.

(1) - نفسه، ص223.

وقد انتشرت اليوم رموز كثيرة غنيّة بالتكثيف والتحويل والتلميح (على غرار نازيّ) وقد تخلق خلقا وفي هذه الحالة تبنى في صورة رموز جماعية بواسطة أدوات الإعلام[1]: وهكذا فالأسماء التي بتنا نستعملها بعد انتشار العولمة والحرب في العراق (قومي، وطنيّ، أصولي، بعثي، عربي، إسلامي..) لا تدلّ في الحقيقة إلاّ على مواقف كرّسها الطرف المنافس ونجح في ترويجها إعلاميّا. (فنفس القاعدة التي جعلت مصطلح «نازيّ» شتيمة، هي التي حوّلت مصطلحات: اشتراكي، وقومي وبعثي وإسلامي، وغيرها.. بعد حرب العراق، إلى جرائم ضدّ الإنسانيّة.. وقد روّج لذلك بشكل تنادت معه وسائل الإعلام العربية نفسها بفساد مفاهيم مثل: القومية العربية، والوحدة العربية.. لتصبح موازية لمصطلحات الإرهاب أو الدّمار الشامل..

يقودنا هذا إلى البحث في وظيفة اللغة في حدثين مهمّين على الأقلّ عربيّا وهما العولمة والحرب في العراق. فقد كانت اللغة جزءا من هذه الاستراتيجية التي حلّلنا. فلا ينبغي حينئذ أن نتصوّرها عفوية أو محايدة، أي هي مجرّد وسيلة لنقل الوقائع، لقد كانت مظهرا رئيسيًّا من الحرب أو حربا داخل الحرب. بل هي واجهة هذه الحرب في تشريعها وتنفيذها وتسويقها باعتبارها بضاعةً غربيَّة المنشإ إنسانيَّةَ التَّنفيذ عادلة الهدف، ولكنّها فقط عربية الموقع.

ويمكن بجرد سريع لأبرز المفردات والمصطلحات التي عالجت الظاهرتين: العولمة، والحرب في الإعلام المكتوب والمنطوق أن نتبيّن ملامح صراع غير متكافئ (مِثْلُه مثل الحرب العسكرية) بين معجمين: معجم واقع تحت التأثير الإعلامي الغربي؛ ومعجم صادر عن جهات مستقلَّة.

ولن تُمَكِّن مجرّد القراءة العادية من فهم الدلالة المقصودة، ما لم تتبعها عملية تقصّد وتأويل بالوقوف على طبيعة المتكلّم ومجال الكلام وطبيعة المتلقي. فإنّ هذه

(1) - نفسه، ص230.

المصطلحات في غالبها ذات دلالة خاصة بكلّ ظرف وسياق.. وهذا يستدعي منّا في كلّ مرّة معرفة السّياق لتحديد الدلالة الحقيقيّة المقصودة في مصطلحات مثل: الإرهاب والتعاون والتحرير والمقاومة والاحتلال والديمقراطية والشرعية..

وهكذا يدور هذا المعجم، الذي أفرزته العولمة، على ألسنة رجال السياسة والإعلام دون أن تدلّ مفرداته على معان مشتركة يتّفق حولها جميع المستعملين. ولا شكّ أنّ لكلٍّ قراءته ومقاصده أي تأويله لمدلول ذلك المعجم. فهو يوظّفه وفق قناعات ورؤى ليست بالضرورة ثابتة الدلالة في أذهان الجميع.

فمفردات هذا المعجم تقوم على مستويين: مستوى موضوعيّ مشترك، وهو ضروريّ لأن يجعل عملية الفهم ممكنة؛ ومستوى ذاتيّ يستقطب فكر المتكلّم ويجلي أبعاد استخدامه الخاص للغة. والمستويان يتعاضدان في فكر المتلقّي لفهم مقاصد المتكلم وإعادة بنائها[1].

وغاية بحثنا -من خلال ما سنقترحه من مصطلحات من مجالي «العولمة» و«الحرب»- الكشف عن أنّ جزءا مهمّا من نشاط المصطلحية السياسية ليس بالضرورة تعبيرا عن تصوّر ذهنيّ ودلالة معجمية قارّة بقدر ما هو تأويل يخضع لعوامل: المتكلّم والإطار المادي والفكري والسياسي.. وتساور المتلقّي باستمرار أسئلة عن دلالات هذا المعجم وخفاياه الفكرية وأبعاده اللغوية، وهو ما يدعو فعلا إلى محاولة البحث فيه، قصد فهم ما يقوله فعلا لا ظاهرا..

وهذا معناه أنّنا مضطرون إلى تجاوز ظاهر الدلالة في محاولة لتقصّي الدلالات الحقيقية أو العميقة التي يمكن أن يكتسبها التأويل باعتباره شكلا من أشكال قراءة المعنى اللغوي. وقد رأينا أن نصنّف ما أسميناه بمصطلحات الحداثة إلى صنفين الأول متعلّق بمصطلحات العولمة، والثاني متعلّق بمصطلحات الحرب، وسنعالج

(1) - إشكالات القراءة، ص21، ويضيف في ص 45: « كلّ بنية معنوية يكون فيها المعنى المباشر دالا بشكل إضافيّ على معنى آخر غير مباشر أو مجازي لا يمكن إدراكه إلا عن طريق المعنى الأوّل».

قضاياهما الاصطلاحية والدلالية استنادا إلى أحد مصادر تراثنا المعجميّ الضخم في الأندلس وهو معجم «المحكم» لابن سيده[1]، مع الاستعانة أحيانا بمعجم «لسان العرب» لابن منظور، و»المعجم الوسيط» لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، لنقارن درجة الانزياح الدلالي، وخلفياته الثقافية والفكرية والسياسية:

2-1 -العولمة والمعجم:

يبدو أنّ النّشاط اللغوي هو المظهر الأعمق للنّشاط السياسيّ في المجتمع. فكلّ العمليات التي تبدو في الظاهر عمليات لغوية بسيطة هي عمليات سياسية. ومن أهمّها عملية التسمية. فهي -وإن كانت في الأصل إجراء اعتباطيّا أو طبيعيّا لجعل الأشياء قابلة للوجود الذهني- لا تخلو من مواقف سياسية عندما تأخذ التّسمية بعدا تقييميا، كتسمية (رفض الاحتلال) في العراق مثلا: «بالتمرّد» حينا أو «بالمقاومة» أو «بالإرهاب» أو «بالإجرام» أحيانا أخرى.. حتى ذهب البعض إلى اعتبار التسمية موقفا من الأشياء، وتحليل التسمية هو تحليل لعلاقة سياسية. فقد تساعد السامع على تحديد انتماء المتكلم السياسي وحتى الطائفي والعرقي في العراق مثلا. انظر مثلا التسميات المختلفة في تحديد الوجود الأمريكي في العراق فهي تتراوح من متكلم إلى آخر بين: نصر أو تحرير أو إنقاذ إلى احتلال أو غزو أو استعمار.. وهذه العبارات تبطن تباينا من ناحية العلاقة مع أمريكا، حتى تلك التي تبدو في الظاهر مترادفة كالاحتلال والغزو والاستعمار فإنّها تعكس حنينا إلى ماض مفقود وهو الاستقلال، أو تعويضا عن عجز وهو الهزيمة العسكرية، أو احتجاجا عن حال وهو الغربة داخل الوطن..

(1) - ولأهمية معجم «المحكم» مع عدم اعتماد الباحثين عليه إلا نادرا نورد هذا التقديم الموجز: ذكر ابن سيده أنّه ألّفه بأمر من الموفّق مجاهد العامري حاكم دانية والجزائر الشّرقيّة زمن الطّوائف، قائلا: «..فأمرني بالتأليف على حروف المعجم، فصنفت كتابي الموسوم بالمحكم.» (المحكم، ص6). وهو الذي قال فيه طه حسين: «هذا كتاب يعتبر أصلا من أصول المعجمات العربية» (تصدير المحكم، ص3).

ولهذا ينبغي أن نتناول اللغة بحذر ولا نعتبرها مجرّد انعكاس لواقع مباشر، بل إنّها تكشف عن تعقّد العلاقة بين الفكر والواقع. وما احتكار القوة الإعلامية في العالم إلا دليل على أنّ احتكار الاستعمال الرسمي للغة يعني احتلال المواقع التي تتحكّم في ما تحتفظ به الذاكرة وما يمثله الحاضر لينقل إلى الناس على أنّه وصف موضوعي للواقع. ويظلّ البحث في لغة الخطاب الإعلامي بحثا في الآليات الذهنية والاجتماعية التي يستند إليها هذا التوجيه لترجيح إحدى الممكنات على غيرها.. فوجب هنا توجيه المتلقي لمعرفة المواقف والمرجعيات التي تبني لغة ما.

فنحن عادة ما نصطدم بمصاعب الكلمة في شكلها النّهائيّ لأنّها تزوّدت في مراحل استعمالها بدلالات جديدة، ويظلّ المشكل كامنا في معرفة الشكل الأصلي الأوّل للظاهرة..[1] أي معانم لا تحتوي على معلومات متّصلة بالمعنم الأساسيّ فحسب، بل تحتوي إلى جانب ذلك على معلومات متّصلة باستعمالاتها الممكنة التي تُعدّ لها في المستقبل، لتؤدّي وظيفة تشكيل مقومات الثقافة العولمية. ويبدو أنّ التعدّد اللغوي في ظلّ العولمة يقود بالضرورة إلى امتزاج الثقافات ومن ثمّ إلى تداخل مبانيها الذّهنية في صنع المصطلح من ناحية وفي تشكيل مفهومه من ناحية ثانية.

غير أنّ هذه الحقيقة العلمية لا تكون كذلك إلا عندما تكون هناك حرية اختيار. أمّا في حال العولمة، فإنّ اللغة توظّف وفق بنية ذهنية ذات مراجع خصوصية يوثّقها أداء مصطلحيّ عام لدى متكلميها، ومن ثمّ تتوطّد تعبيراتها الخاصة بتوطّد دلالاتها وفق أشكال تعبيرية متّفق عليها. وبقدر ارتباطها بمفاهيم العولمة تكون قادرة على الانصهار في مجالات العولمة كالانفتاح والتسامح والحرية.. لتؤدي وظيفة ما يسمى بحوار الثقافات وهو ما يهدم الجدار المعياري بين الثقافات ويقيم بدله عالمية اللغة[2]..

(1) Milner : Intr. à une science, P. 185 -.

(2) - المسدي: ما وراء اللغة، ص161.

والمهمّ بالنسبة إلى بحثنا أنّ الفكر الإنساني الواحد في ظاهره لم يسلم دائما من تصنيف عنصريّ ومذهبيّ ودينيّ للأمم والشعوب وهو ما نخر قيمه بالشذوذ ونحن سنكتفي بدراسة ذلك في مستوى لغوي فحسب.

تكشف أحداث العولمة أنّ اللغة مجال أساسيّ من مجالات الصراع الفكري وحتى السياسي. ومجرّد تحويل اللغة إلى رمز بلا روح أو وعي أو انتماء حقيقي يختزل قيما ومفاهيم ناضلت شعوب من أجل تكريسها يخرج اللغة من خصوصياتها الإنسانية الحميمة إلى ضرب من التّوظيف الماديّ يفرغها من أبعادها الجوهرية. فإنّ اللغة تجاوز كونها رمزا لتكون تاريخا فكريًّا للمتكلمين يصل بين ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم؛ ومنظارا يحدّد كلّ مفهوم تعارفوا عليه من خلال ألفاظها لا ألفاظ غيرها، فيدركون ما حولهم من حقائق. ولهذا فاللغة تمثّل الوجه الآخر للفكر. والفكر نفسه لا يبلغ مداه الأبعد ما لم يقترن بوعي لغويّ.

وربّما هذا ما دفع أنصار العولمة إلى تجريد اللغة من خصوصياتها سعيا إلى طمس معالم الذاتية والذاكرة لدى الشعوب، قصد إنشاء أجيال وحتى شعوب بلا انتماء ولا هوية. ولذا نجد اللغة في فكر العولمة تعالج باعتبارها بضاعة مادية يمكن أن تعطى بعدا تجاريًا كغيرها من البضائع. ولعلّ لذلك هدفه البعيد المدى، وهو حصر مدلولها فيما يصبغها به المنتوج الاقتصادي من خصائص. فلا غرابة أن يسيطر قاموس حديث يرسّخ مفاهيم اقتصاد السوق ويعمّمها حتى على القضايا الفكرية والسياسية «كتسويق الفكر أو المبادرة» أو «ترويج الديمقراطية» أو «تحرير القيم»..

وقد أدى ذلك فعلا إلى تداخل المفاهيم والمصطلحات الدالة عليها عمدا، ليسود غموض مصطلحي ولبس لغويّ مقصود تتذبذب فيه المفاهيم والمرجعيّات التي تحيل عليها بين القيم والبضاعة.. فالحداثة مثلا أصبحت رمزا «للانفتاح» الذي يحيل بدوره على «التبادل الحرّ» والانخراط في «الليبيرالية الاقتصادية».. وهكذا يصبح من

الصعب تحديد المعنى المقصود دون إحالات مطولة نظرا لهيمنة المعنى الاقتصادي من ذلك: «التسامح» و»روح العصر» أو»الحوار»..[1] فهذه المفاهيم جميعا تلتقي في غربة معنوية تنأى بها عن بيئتها التي أنشأتها، وحتى حقولها الدلالية التي منها تستمدّ مفاهيمها لتنصهر في بوتقة من التناقضات وربما من الغرابة.

فإلى أيّ مدى أثّر التحوّل إلى العولمة في خصائص اللغة العربية سواء في مستوى المعجم أي المفردات أو في مستوى الأساليب أي طرق التفكير؟

ويكفي أن ننظر في نماذج من مفردات الحداثة أو العولمة، لنكتشف ما يرافقها من مفاهيم سادت مع ظهور فكر العولمة. وقد رأينا أن نصنّف هذه النماذج إلى ثلاثة أقسام:

أ- مصطلحات خلافية بين الغرب والآخر: (العولمة، والإرهاب، والتسامح، والتعاون):

1-العولمة: نعرف أن مصطلح «العولمة» مصدر اشتقّ حديثا من اسم الجنس الجوهري(عالم). والفعل منه (عولم) ويكثر في العربية الحديثة اشتقاق أفعال ومن ثمّ مصادر وصفات من الأسماء الجامدة وأسماء الأعيان الجوهرية أو العرضية. وكان هذا الاشتقاق في القديم مقصورا على حالات سماعية خاصة، لكنّ الاستعمال الحديث قد أظهر الحاجة خاصة إلى تعيين المفاهيم المجرّدة، وذلك بتعميم اشتقاق المصادر من الأفعال أو الأسماء التي لم تسمع مصادرها أو تلك التي تولّدت حديثا. وهو ما يدخله اللغويون تحت باب تكملة مادة لغوية لم تذكر بقيتها. وهي من الظواهر الصرفية المتمكنة في اللغات اللاتينية، إذ من خصائص هذه اللغات توليد أسماء وأفعال وصفات من الاسم أيّا كان بحكم يسر نظام الإلصاق فيها. وقد انتقلت هذه الخاصية إلى العربية بسبب عوامل التأثير المختلفة ومن أبرز قنواتها الترجمة. فإنّ هذه الصيغة كانت في أصل وضعها تلبية لحاجات الترجمة التي يقتضيها نقل المصطلح

(1) - حاتم بن عثمان: العولمة والثقافة، ص12.

الأعجمي (mondialisation) المولّد بدوره من كلمة(monde) محاكاة في الغالب لهذا المفهوم الغربي الحديث. فما دلالاته وخصائصه؟

جاء في معجم المحكم لابن سيده، شرحه لدلالة كلمة (العالم) بقوله: «العالم: الخلق كلّه»[1].. لكنّ ما يُستنتج لغويا من بنية مصطلح (العولمة) هو عكس ذلك تماما، إنّه ردّ المتعدّد إلى المفرد، أي تحويل الكيانات المخصوصة في هذا العالم إلى نموذج شامل تقوم مكوّناته الأساسية في الحقيقة على خصائص منوال منفرد هو المنوال الثقافي والحضاري والفكريّ الغربيّ، فيه تصبح كلمة (العالم) مساوية لكلمة (الغرب)، بحيث يؤول الغرض من هذا النموذج الجامع إلى استقطاب الآخر في رؤية ظاهرها عالميّ وباطنها مركزية غربيّة. ولذلك يبدو أنّ العربية مطالبة بصناعة مشتق أو مصطلح غربيّ الدلالة أصلا، ليعبّر عن هذه المفارقة. فكان الاهتداء إلى صيغة (العولمة).

وقد حاول البعض ترويج مصطلح (الكونية) من (الكون)، لكنّه لم يكتب له الانتشار لأنّه مصطلح محايد فعلا، ولا يشتمل على هذا البعد الاستقطابي لمصطلح (العولمة)، فصيغة (فوعل) نفسها في العربية كقولب وبلور، تغلب عليها دلالة تحويل الكلّ إلى واحد، وتغيب عنها مفاهيم توحيد متكافئ لمكوّنات شتى. فلو كان الهدف خلق مصطلح من كلمة (العالم) يدلّ فعلا على اشتراك الكيانات المحليّة المختلفة في صنع وحدة عالميّة بين جميع الشعوب، لكان أيسر أن نستخدم مصطلح (العالميّة).

ومع ذلك فبعضنا لا يزال يفهم (العولمة) على أنّها (العالميّة أو الكونية)، فنظر إليها على أنّها كلمة أو مصطلح محايد، وهو جَعْل الشيء عالميا، لأنّ في أذهاننا في الحقيقة فكرة (العالمية) لا (العولمة). إذن بهذا المعنى نستطيع أن نعرّف العولمة لغة بأنّها تذويب الآخر في كيان عالميّ استقطابيّ مركزه القوة الأمريكية بأبعادها الثلاثة: المالية والعلمية والعسكرية، ونموذجه الفكر الغربي بعقيدته الاستعلائية الموروثة،

(1)- المحكم، الجزء الثاني، ص126.

وغايته الانفتاح التجاري والتّسامح الفكريّ والثقافيّ بما يضمن مزيد تكريس الهيمنة على مقدّرات الشعوب وقيمها.

هذا هو منطق العولمة كيف يتجلّى في المستوى اللغوي. قبل أن نأتي إلى المستويات الأخرى الفكرية والسياسية والاقتصادية. فهل نحن قادرون على تحقيق تكافؤ بمجرّد وضع مصطلح مقابل؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يطرح على من لا يزالون يؤمنون بأنّ العولمة هي العالمية.

سأحاول إثبات ذلك من خلال معالجة لغوية قائمة على أمثلة من المصطلحات الحضارية السائدة ومقارنة دلالاتها المعجمية والحضارية في اللغة العربية ثم من خلال العولمة، لنرى إلى أيّ مدى تُخضَع المفاهيم في العولمة وتُختزل في مفهوم واحد يتكرّس لخدمة أبعاد العولمة فحسب.

2-فالإرهاب: مصدر من أرهب، وصيغة أرهب هنا صيغة مزيدة لأصل ثلاثيّ هو (رهب)، جاء في «المحكم» لابن سيده: رهِب الشيءَ رهْبا ورهابةً ورهْبةً: خافه، والاسم الرُّهب والرُّهبى والرّهبوت.. وأرهبَ الرّجلَ: فزّعه وخوّفه. واسترهبه: استدعى رهبته حتى رهِبه الناس. وبذلك فُسّر قوله عزّ وجلّ: «واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم.»[1].

ولا نجد في الثقافة العربية والإسلامية دلالة للإرهاب بمعنى العنف الموجّه الذي تُظهره الدلالة الغربية المعاصرة في مصطلح (le terrorisme/ terroriste).

أما الدلالة المحدثة وقد أدرجها مجمع القاهرة في معجمه (المعجم الوسيط) فهي: «المصدر: الإرهاب ومَن يتّصف به الإرهابيّ: يطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهداف سياسية».

إنّ هذا الفعل وما تولّد عنه يشترط وجود طرفين: الفاعل والمفعول به، هذا مطلقا، لكنّنا إذا ما سلّمنا بالتعريف الوارد في المعجم الوسيط بأنّ الإرهاب هو اتّخاذ

(1) - انظر: المحكم، الجزء الرابع؛ وسورة الأعراف، الآية 114.

سبيل العنف لتحقيق مكاسب سياسية بناء على أنّه تعريف عالميّ أو على الأصحّ عولميّ، يرضي الجميع، نصطدم بمسألة غير دقيقة فيه وهي مفهوم عبارة (السياسية) الذي يجعل العنف إرهابا. إنّ المكاسب السياسية يمكن أن تشمل: جميع ما يفرض على الناس بالقوة للتحكّم في اختياراتهم كالقمع المادي والفكري والتّوجيه السياسي القهري، أو الانتخاب الإجباري، أو فرض الرأي الواحد إلخ..

لكن جميع هذه الدلالات قد أسقطها الفكر الغربي المعولم ولم يبق منها إلا ما يدلّ على صراعه الثقافي القديم الجديد الذي يستعمله سلاحا في وجه المارقين عن إرادته.. وبذلك تكون دلالة الإرهاب عنده بمعنى معاكس تماما لما رأينا، إنّها كلّ عمل قائم على عنف مادي أو حتى معنويّ يطالب أصحابه بحقّهم في التحرّر من العولمة.

وبذلك يلتبس هذا المفهوم العام جدّا للإرهاب، وهو استخدام العنف للوصول إلى أغراض سياسية بحقّ الشعوب في مقاومة الاحتلال.. بينما لا يتأتّى لهم ذلك إلاّ باستخدام القوّة والكفاح المسلّح وإضعاف روح المستعمر المعنوية، كما حصل في الجزائر وفيتنام، ويحصل في فلسطين والعراق مثلا..

3-والتسامح: مصدر تسامح من (سمح)، وهو (سمح) كما جاء في محكم ابن سيده: «سمح لي بكذا يسمح سماحة وأسمح وسامح: وافقني على المطلوب.. وتسمّح: فعل شيئا فسهّل فيه. وأسمحت الدابة: لانت وانقادت.. والسماحة: المساهلة»، فلا وجود في المصادر القديمة لصيغة (تفاعل= تسامح) فأما ما تفيده هذه الصيغة الصرفية، فاشتراك طرفين فأكثر في إنجاز الحدث؛ وأما ما تفيده الدلالة المعجمية فمعنى التساهل واللين.. ويستعمل المعجم الوسيط صيغة تسامح ويشرحها بقوله: تسامح: تساهل، من سمح سمحا وسماحة: لان وسهل..

لكن ما يلاحظ في الدلالة المحدثة التي تفرضها العولمة أمران: الأول: إسقاط مفهوم المشاركة وحصر الحدث فعلا في الطِّرف الأضعف أي في العالم غير الغربي

وتحديدا الإسلاميّ، بما أنّ العولمة أساسا استقطابية غربية تقوم كما بيّنّا على علوية الحضارة الغربية؛ والثاني: اعتبار العالم غير الغربيّ عالما متعصّبا، ولذا يُطلب منه التساهل واللين لقبول الآخر. وهذا يجعل الغرب عالم التمدّن الحقيقيّ والقيم الإنسانية، وكأنّه هو الضّعيف أو الضّحية لتشدّد مجتمعات «الهمجية والظلامية والانغلاق»[1]. وبالدعوة إلى (التسامح) يبدو الغرب وكأنّه هو المبشّر بهذه القيمة الإنسانية النبيلة. أما في الواقع فهو يترفّع عنها في وقت يُلزم بها غيره. وفي هذه الحالة لا يكون النّاتج عنها تسامحا بل استسلاما، لأنّ من شروط التّسامح التكافأ ومن ثم التّشاركَ.

ومن الأمثلة التي ينتشر فيها مصطلح التسامح: قبول مفاهيم العولمة رغم تناقضها مع الخصوصية الثقافية والدينية.. تبنّي قيم الغرب وعاداته كقضايا كالحرية الجنسية بين المثلين، وعدم تجريم الزنا مثلا..

4-والتعاون: مصدر تعاون من (العوْن)، والعون في «المحكم»: «العوْن: الظهر.. وقد استعنته واستعنت به فأعانني.. وتعاونوا واعتونوا: أعان بعضهم بعضا»[2]. فلا وجود في المعجم القديم لشرح مخصّص لمصدر (التعاون). لكنّ استخدام ابن سيده لفعل (تعاونوا: بمعنى أعان بعضهم بعضا) دليل على أنّ ما تفيده الصيغة هو اشتراك طرفين فأكثر في إنجاز الحدث؛ وأما ما تفيده الدلالة المعجمية فقد جاء في معجم المحكم: العوْن: الظهر: أي السّند.

لكنّنا نلاحظ كذلك في هذا المصطلح الذي أنشأه فكر العولمة توليدا دلاليا مهمّا، فقد أسقط مفهوم المشاركة وحصر الحدث فعلا في الطرف الآخر وهو عادة العالم غير الغربي عامة، والسبب أنّ التعاون –حسب هذا الفكر- ليس أن يعاون الناس بعضهم بعضا، بل أن يقبل العالم المتخلف واقع السيطرة الغربية ويخضع لآلياتها الحضارية والاقتصادية وحتى الفكرية لينطبق عليهم مصطلح (التعاون).

(1) - قصدنا استخدام عدد من المصطلحات الرائجة في فكر العولمة مثل: التعصّب، التشدّد، الظلامية، الانغلاق.. لأنها في صلة مباشرة مع ظهور مصطلح التسامح.
(2) - انظر: المحكم، الجزء الثاني.

من الأمثلة التي يكثر فيها استخدام مصطلح (التعاون): الاستجابة للمطالب الأمريكية بالتخلي عن السلاح النووي.. وتأييد الإدارة الأمريكية في غزو العراق.. والتنازل عن السلطة لصالح المرشح الأمريكي.. وتوريد السلع الأمريكية بالشروط الأمريكية..

ب- **مصطلحات موجهة لرافضي العولمة** (التشدّد، والأصولية، والعنف):

1-التشدّد: مصدر من تشدّد. يقول ابن سيده في المحكم: «الشدّة نقيض اللين، وتكون في الجواهر والأعراض.. ورجل شديد: قويّ.. ورجل شديد: شحيح. والمتشدّد: كالشديد..»، فالتشدّد حينئذ هو نقيض التسامح (القوة/ اللين). لكنّ هذه الدلالة تطورت في العصر الحديث، فنجد المعجم الوسيط يشرح (تشدّد) بقوله: تشدّد في الأمر: بالغ ولم يخفّف..

الملاحظ أنّ هذه الصيغة لا تحتاج إلى مشاركة وهميّة كما هو الحال في المثالين السابقين (تسامح وتعاون: حيث يدّعى المشاركة لتبرير نشر المفهوم وإطلاقه على التعميم، بينما هو في الحقيقة موجّه إلى غير الغربيين)، لأنّ ما يدلّ عليه مصطلح (التشدّد) هو مظهر من مظاهر التزمّت والتعصّب المرتبط أصلا بالعالم غير الغربي الرافض لمبادئ التحرّر والعدالة وحقوق الإنسان.. وغيرها من القيم التي قام عليها فكر العولمة.

ما يلاحظ في هذا المصطلح هو تولّده دلاليًا وليس شكليا لأنّ المفردة قديمة معروفة لكنّ الطريف في استعمالها في أنساق عولمية جديدة يتمثّل في تخصيصها لضروب معيّنة من المواقف هي الرافضة لفكر العولمة، وفي المقابل متمسّكة ببعض من أصالتها وتراثها، فيوصف ذلك بالتشدّد، لأنّ فيه منعا لحرية تنقل الثقافات كما تتنقل البضاعة..

ومن المجالات التي يكثر فيها استخدام مصطلح التشدد نذكر: اتّخاذ عرفات مواقف متشدّدة من مسألة اللاجئين والقدس.. ومطالبة متشددين إسلاميين بارتداء

الحجاب.. والمتشددون الإيرانيون يرفون دعوات الإصلاحيين..

2-الأصولية: مصدر صناعي محدث مشتق من الأصول، جمع أصل. فيقال على من يبني أحكامه على أصول العلوم دون الفروع «أصوليّ». أي الذي لا يطمئنّ في معرفته وقناعته إلا على أساس الشيء ومنبته وأصله. لكنّ (الأصوليّ) بمعناه المعاصر هو المنتمي إلى (الأصولية) وهي في الغالب دينية. ويكثر في العربية الحديثة توليد هذا الضرب من المصطلحات المعروفة بالصناعية عندما تستنفد وسائل الاشتقاق من الأوزان القياسية، فيقع اللجوء إلى سدّ النقص باعتماد المجاز ومن قواعده اعتماد القرينة كذكر الظرف وإرادة المظروف أو العكس، وذكر الجزء وإرادة الكلّ أو العكس.. «ولعل أكثر القرائن اطّرادا في صياغة المصطلح العلمي عامة هو ذكر النعت وإرادة المنعوت، بل إرادة النعت استغناء به عن ذكر المنعوت مقرونا بنعته. ذلك أنّ النعوت في السياق تبدو هي الحاملة للمفاهيم المعرفية، فهي عماد الشحن الاصطلاحي غالبا..»[1].

أمّا من الناحية الدلالية فقد تخصّص معناه في فكر العولمة على من يتمسّك بجذوره الثقافية والحضارية، فلا يقبل تبديلها، بل ربّما أصرّ على العمل بها ضدّ تيار العولمة.. فيعدّ لذلك خارجا عن أنساق العولمة وتتحوّل التسمية تدريجيا إلى اتّهام يرقى إلى درجة الإرهاب.

ومن المجالات التي يستعمل فيها هذا المصطلح نذكر: الأصولية الدينية في مواجهة العولمة.. وزعيم أصولي يهدّد بتفجير آبار النفط إن هوجم أنصاره..

3-العنف: مصدر من عنف. جاء في معجم المحكم: «العنف: الخرق بالأمر وقلة الرفق به.. والعنيف الذي لا يحسن الركوب، وقيل الذي لا عهد له بركوب الخيل.. واعتنف الشيءَ أخذه بشدّة».. هذه الصيغة قديمة معروفة وظاهر التوليد فيها دلالي لا شكليّ، فقد تحوّلت دلالة العنف من المعاني التي ذكرنا لتختصّ بردّ فعل

(1) - المسدي: المصطلح النقدي، ص67.

الرّافضين لفكر العولمة والداعين إلى مقاومته. إذ ليس في دلالة صيغة العنف مفهوم المشاركة أو قيام الفاعل بالفعل لنفسه، كما رأينا في مصطلح (التعاون) مثلا، وإنما هي دالة على مفهوم جوهريّ مجرّد يرتبط في الغالب بمعان سلبية كانعدام الرأي والعقل والإسراع إلى استخدام القوة لمواجهة الأمور..

غير أنّ هذا المصطلح يستدعي بالضرورة مصطلحا آخر هو (الدفاع عن النفس). فالمصطلحان مستخدمان اليوم ولكن وفق مقولة (الكيل بمكيالين)، فلكلّ واحد منهما مجاله الخاص: فالعنف دائما من تعبيرات الرافضين للعولمة ودعاة التحرّر من الهيمنة؛ والدفاع عن النفس هو مجرّد ردّ الغرب، ولكنّه ردّ ساحق لأبسط حقوقهم..

ومن المجالات التي يستعمل فيها هذا المصطلح: مطالبة عرفات بإيقاف العنف الفلسطيني.. وتواصل أعمال العنف في الأراضي المحتلة.. ولا ينبغي تحقيق مكاسب باستخدام العنف..

ح-مصطلحات شائعة تبدو مجرّد مفاهيم محايدة في ظاهرها (التطبيع، والشرعية، والمتوسطية، والانفتاح، والشرق أوسطية):

1-التّطبيع: مصدر مولّد حديثا ترجمةً للمصطلح الأجنبيّ (Naturalisation)، للتعبير عن نقل شيء من حالة شاذة إلى حالة عادية طبيعية. فهو مشتق إذن من اسم الجنس (الطبيعة) [1]، وليس من الفعل المعروف طَبَّعَ، وهو (في المعجم الوسيط) مبالغ طَبَعَ، ومعناه: أنشأه وعوّده على كذا.. والتطبيع بهذا المعنى يكاد يقتصر استعماله في أدبيات الثقافة العربية المعاصرة على السلام مع إسرائيل. فهو في النهاية انتقال من الشّذوذ، وهو هنا معاداة إسرائيل، إلى الطبيعيّ وهو الاعتراف بها وربط صلات سياسية واقتصادية وثقافية معها. وما يلاحظ في هذا المصطلح هو دلالته الصرفية المعبّرة عن ضرورة قيام الفاعل (وهو الطرف العربي) بالفعل لنفسه وبنفسه بما أنّه هو الواقع في

(1) - الطبيعة عند ابن سيده هي الخليقة، وطبعه الله: فطره وخلقه وهي طبيعته التي خلق عليها. انظر: المحكم، الجزء الأول.

دائرة الخطإ، بينما الصواب في إجماع العالم الغربي على سلامة إسرائيل..

ويجمع توليد هذا المصطلح (التطبيع) بين توليد شكلي تمثّل في صياغةِ مصدر محدث من اسم جنس جوهري (الطبيعة)، وتوليد دلالي لمفهوم محدث أيضا وهو جعل الشيء طبيعيّا.

ومن المجالات التي يستخدم فيها هذا المصطلح نذكر: «مقاومة التطبيع مع إسرائيل.. ووقف إطلاق النار وتطبيع الوضع على الحدود.. ومن منجزات الانتفاضة إيقاف سياسة التطبيع..».

1-الشرعية: ظهر هذا المصطلح اختصارا لمركّب مثل: القوانين الشّرعيّة أو المؤسّسات الشرعيّة. ويدلّ تحويل النعت (الجزء الثاني من المركب) إلى مصدر صناعي على إبراز الجانب القانونيّ وجعله مفهوما مجرّدا يرتقي إلى مرتبة المبادئ العامّة في المعاملات الدُّوليّة. فلا عُلويَّة فوق القانون ورمْزُه مَصطلح (الشرعيّة).

وأما معناه فقد جاء في معجم المحكم: الشَّريعة: المواضع التي يُنحدر إلى الماء منها، وما شرَّعه اللهُ لعباده من العقائد والأحكام..»[1] فهو إذن ما أُعلي وسُنّ من قوانين سماويّة أو وضعيّة. لكنّ استعماله يكاد يقتصر اليوم على شرعية العولمة، فيدان باعتماده من لا يخضع لشروطها من غير العالم الغربي، بينما يتحوّل إلى تستّر على الغربيين بغية تقنين مظالهم باسم تطبيق الشرعية الدولية.

ويكثر استخدام هذا المصطلح في مثل: «تهرّب النظام العراقي من تطبيق الشّرعيّة الدوليّة».. و»كيف يمكن للشّرعية أن تجزّأ أو أنْ تَكيل بمكيالين؟.».

3-الانفتاح: جاء في معجم المحكم: «الفتح نقيض الغلق.. وافتتحه وفتّحه فانفتح وتفتّح»[2]. فهو إذن مصدر من انفتح، مطاوع (فتح). ودلالة الصيغة على المطاوعة إشارة إلى ضرورة الاستعداد التّلقائي للدُّخول في العولمة. ومن شروط هذا

(1) - انظر: المحكم، الجزء الأول.

(2) - نفسه، الجزء الثالث.

الاستعداد التنازل عن الخصوصيّة بجميع مستوياتها: الفكرية والثقافية والاقتصادية وربما الدينية أيضا، على أمل أن يدخل مع الآخر في شراكة توحّد بين ما يمتلكانه من إيجابيات، بحيث لا يذوب أحدهما في الآخر. جاء في المعجم الوسيط: انفتح الشيء عن الشيء: انكشف عنه. وهذا دليل على أنّ من دلالات «الانفتاح» محو الحواجز إلى درجة التكامل.

لكنّ الواقع يشهد بأنّ مصطلح «الانفتاح» استخدم في مقابل مصطلح آخر هو «الانغلاق» الدال على ثقافة الرفض والمواجهة وفي ثقافة العولمة يراد القضاء على جميع أشكال الاختلاف، بتكريس مبدإ الانفتاح..

ومن استعمالات هذا المصطلح نذكر: «ضرورة الانفتاح على الثقافات الأخرى.. دعم الانفتاح الاقتصادي.».

4-الشرق - أوسطية: مصدر صناعي مركب من شرق وأوسط. وهو خير نموذج عن يسر استعمال آلية المصدر الصناعي بطواعيته التركيبية وانسيابه الدلالي. فقد وفّر للعربية مقدرة على صياغة المصطلحات مكّنها من تجاوز المراحل المألوفة في بناء المصطلح للبلوغ به مرتبة التجريد الذهني وصقل المفهوم معرفيا. فإنّ العربية استطاعت بفضل المصدر الصناعي نقل اللفظ الأجنبي نقلا مباشرا. فأغلب ما صيغ على هذا المنوال مصطلحات ظهرت في اللغات الأعجمية باعتبارها مفاهيم تجريدية. وقد وجدت العربية في هذه الصيغة حلا لمعضلة نقل هذه المفاهيم شكليا ودلاليا.

و«الشرق - أوسطيّة» مفهوم أحدثته العولمة ليحوّل مصطلح (الشرق الأوسط) الذي أنشأه الإنغليز لمواجهة مصطلحات قوميّة ودينيّة، من مجرّد إطار جغرافيّ إلى مفهوم فكريّ وثقافيّ تنصهر فيه ثقافات متنوّعة لا توحي بانتمائها التاريخي إلى الإسلام بل تتّسع لتشمل إسرائيل وبعض ما يدور في فلكها من أقلّيات. بل إنّ «الشرق أوسطية» تمتدّ جغرافيا أيضا إلى شرق أوروبا وأواسط آسيا لتشمل شعوب الشرق الأدنى؛ وشمال إفريقيا لتضمّ المغرب العربي.. وفي ذلك تمييع للهويّة العربية

الإسلامية في مكوّن ثقافي شاسع لا رابط بينه إلا رابط العولمة المستحدثة كضرورة التكامل الاقتصادي وبناء فضاءات للفكر والاقتصاد والسياسة..

إنّ هذه المصطلحات موضوعة حديثا لتلبّي متطلّبات الفكر العولميّ وما يقتضَيه من أدبيات تعمل على تكريس فكر واحد تحت شعارات ومسمّيات مغرية، لما في ظاهرها من نُبلِ قِيَم، وتمسّك بفضائل حقوق الإنسان في العدالة والتّآخي ورفض القهر والظلم والاستعباد..

لذا فإنّ كلّ طرف قبلها حسب فهمه الخاصّ، وحاول الانخراط فيها وتأويلها بما يخدم قيمَهُ أوّلا ومن ثمّ مصالحه الاقتصادية والسياسية والثقافية.. لكنّ ذلك لم يمنع من تورّط الكثيرين في نتائجها التي تكشّفت عنها حقيقة هذه المصطلحات وما تخفيه من مآزق فكرية وسياسية وثقافية آلت إلى فرض منوال واحد على الجميع. إضافة إلى أنّها تلتقي في شيء أساسيّ وهو قيامها جميعا على ثنائية السلب والإيجاب، فهي تعبير دقيق أو خفيّ عن صراع ثقافيّ يبطن كلّ منهما فهمه لمدلول المصطلحات المذكورة.

فصراع المصطلحات يخفي في حقيقة الأمر صراعا في المفاهيم أي صراعا في المنطلقات التي يعتمد عليها الفكر المنتج لها، والفكر الذي يسرع في استخدامها. لذلك نجد أن لا مفرّ من فضّ الإشكالات المتولّدة عن الملابسات المصطلحية. فإنّ من وظيفة المعجم إقامة الجسور بين قطبي الدلالة: الأصلية والاصطلاحية قصد إماطة اللثام عن بعض أسرار المصطلحات المدروسة.. فرغم صلة هذه المصطلحات بعالمها السياسي فإنّ المعجم يظلّ مِحَكًّا لمعرفة الهدف من ظهور المصطلح ومدى إصابته الهدف أو فشله، فليس المصطلح مجرّد ناقل بل هو سلطة تستبدّ بناصية الفكر تحكما وتوجيها.. ولذا فإنّ كشف أسرار آلياته المفهومية مرتبط بكشف آليات أسراره اللغوية المتحكمة به، وذلك لأنّه جزء من الدراسة اللغوية المعجمية، ولأنّ عالم اللسانيات يسلّم بأنّ استكشاف خصائص الظاهرة اللغوية لا يكتمل إلا بفحص

تجلياتها في الخطاب..[1]

2-2 -الحرب:

لعلّ من الحقائق الشائعة في حياة الإنسان ذلك النّزاع الدّاخليّ بين سلوك الفرد ومبادئه. فحين ينظر الإنسان إلى سلوكه يُبدي دوافعه لنفسه في أشكال ملائمة لمبادئه التي يقبلها.. هكذا تدخل الحوافز إلى شعوره متنكِّرةً في صور دوافع مقبولة يُعبَّر عنها بخيالات تصويرية من خصائصها التّحويل والتّكثيف.. وهكذا نجد إحدى وظائف اللغة بالنسبة إلى الفرد أن تجعل في استطاعته أن يتّفق مع حوافزه[2].

فالناس يحسُّون دائما بالحاجة إلى تبرير أعمالهم لأنفسهم بطريقة منطقية. لكن هناك مجتمعات لا تحاول أن تضع حوافزها الجماعيّة في ضوء النّهار متنكرةً في صورة دوافع مقبولة، وهم لكونهم غير راغبين في الاعتراف بحوافزهم الحقيقيّة، يتّخذون لأنفسهم دوافع معلنة ومبادئ مقبولة شبه منطقيّة. وهم في ذلك مضطرّون لأنّ معرفة هذه الدوافع لم تعد حكرا على قلّة، بل أصبحت اليوم حقّا للجميع. وهذا يستدعي أن تكون ثمَّةَ دوافع جماعيّة يمكن للمجتمع كلّه أن يفهمها ويقبلها، وذلك في وقت يعسر فيه التوفيق في حرب كهذه بين الدَّوافع والمُثُل القوميّة والحوافز الحقيقيّة[3].

وما يخشاه القادة السياسيون أن يبدأ المجتمع يسأل نفسه باستعمال «لماذا»؟، إذا بدا له أنّ سلوكه لا ينسجم دائما مع مبادئه، فتصبح الحاجة ضرورية إلى دوافع مقبولة، لسدّ الفجوة بين المبادئ والحوافز. وهكذا تتولّى وسائل الإعلام خلق مستويات في تكوين الدوافع تمكّن من إخفاء مواطن النّزاع وتعميمها.

(1) - انظر: المسدي: المصطلح النّقدي، ص ص 114-133

(2) - نفسه، ص206.

(3) - مثلا دوافع بونابارت في حرب سنة 1792 على النمسا وبروسيا هي تدعيم سلطانه، لكن الدوافع المعلنة هي حماية الشعوب المهضومة وحق ملوك أروبا المقدس حمايتهم من القتلة. (ينظر: لويس، ص209).

بهذا نفهم كيف اكتسبت الحرب في العراق حصيلة ضخمة من الاصطلاحات الفنيّة والتعبيرات الخاصة (idiomes).. تدلّ على أنّ مناهج الحرب أيضا كمناهج العولمة، تميل إلى اعتماد الاتّصال اللغوي أكثر فأكثر.. فإنّ الزيادة الهائلة في استعمال الكلمة المنطوقة والمكتوبة سواء في السياسة أو في الحرب، تمثّل أحد التيّارات الرئيسية في الثورة اللغوية.. فالاتّصال اللغويّ وهو يتّخذ الشكل المرئيَّ في معظمه لا يمكن أن يُستغنى عنه باعتباره وسيلة للاحتفاظ بالشّعور الجماعيّ. وربما كان أوضحُ مثال على ذلك الإجراء المتمثّل في إذاعة معلومات مستمرّة عن سير المعركة.. ومعنى ذلك أنّ المجموعة المقاومة لا تكتسب شعورا بكونها جماعة إلا بواسطة تبادل اللغة. ولا تتماسك هذه الوحدات معا إلا بواسطة اللغة، وتعمل معا باعتبارها كلاّ واحدا متناسقا[1].

ولهذا نلاحظ انتقاء دقيقا لمفردات مشحونة بكثير من الإيحاءات ذات الرموز البعيدة والقريبة المُعبِّرة عن جملة من الحوافز بعضها كامن في طبيعة المتكلم (الإدارة الأمريكية مثلا)، وبعضها الآخر يتّصل بطبيعة المتلقّي العربي تارة والغربي تارة أخرى. وبالجملة فإنّ هذه المفردات أو المصطلحات التي استخدمها الإعلام العربي صنفان:

أ- صنف أجنبيّ الأصول، ظهر في العربية في الغالب باعتماد قاعدة توليديّة واحدة هي الترجمة الحرفية. والترجمة الحرفية، وإن كانت في ظاهرها أمينة للغة المصدر، فكثيرا ما خلقت إشكالات في اللغة المورد، أي العربية. وذلك في المستويين اللغوي والاجتماعي:

(1) ففي المستوى اللغوي: نرى أنّ المقابل الحرفيّ لنفس المصطلح لا يحمل بالضرورة نفس الدلالة بظلالها الدقيقة في كلا اللغتين؛

(1) - نفسه، ص207.

(2)وفي المستوى الاجتماعيّ: يبدو التكريس الحرفيّ للمصطلح تكريسا لعقلية غربية تختزل التنوّع الكونيَّ في مفهوم واحد هو الفكر الغربي لتشحن الفكر العَربي بصور التفوّق الغربي وانحطاط الفكر الشرقي.

وهذه المصطلحات قائمة على انتقاء لغويّ مقصود لترويج مفاهيم حاملة لثنائية الغرب والشرق وما بينهما من خلاف فكريّ وعقائديّ. وسنضرب على ذلك أمثلة من المصطلحات التي روّجها الغرب بغية تبرير الحرب، دون أن يخفي مقاصده الحقيقيّة.

ب- وصنف عربيّ الأصول، ظهر باعتماد المجاز خاصة ليطابق العصر.

وقد طغى على هذه المصطلحات ما يكرّس روح التّوافق بين جميع المقاتلين (جيشا نظاميا ومتطوّعين وحزبيين..) كالنّزعة الدينية واستلهام الماضي وأمجاد التاريخ، أي إنّ هذه المصطلحات تقدّم معجما تقليديا قائما على مفردات العربية الفصيحة. غير أنّ هذا الرجوع إلى الماضي يشمل الماضي البعيد والقريب، ويطوّر الدلالة وفق مستلزمات المرحلة فليس هو تجمّد في التاريخ، ولكن محاولة لاستلهام المقدرة على المواجهة، باستنهاض القيم الروحية وخلق واقع من الصراع بين الحقّ والظلم، ويمكن تقسيم هذه المصطلحات إلى ثلاثة أبعاد:

(1) بعد دينيّ: فمصطلح الاستشهاديين أو الفدائيين.. يربط الحرب أساسا بفكرة سامية هي الدفاع عن الحوزة الدينية والوطنية. ولذلك يعدّ القتيل فيها شهيدا لأنّه يفدي قضيته الوطنية أو الدينية بنفسه... ولا يخفى ما في ذلك من بعث للروح الدينية وهي أخطر الأسلحة، إلى جانب حثّ الهمم على رفض هذه الحرب ووصمها بالغزو، والغزو، مصطلح قديم يشير إلى نوع من الحروب قديم لم يعد الآن جائزا في الأعراف الإنسانية. فإنّ غزا القوم بمعنى سار إلى قتالهم وانتهابهم في ديارهم. وكان ذلك شائعا بين القبائل ما لم توجد أحلاف ومعاهدات. وأصل الغزو: القصد؛ أما الغنيمة فهي البعد الثاني لهذه الحرب: فإذا كانت الحرب غزوا وظلما لا مبرّر له، فإنّ الغنيمة

هي المحصّلة، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا. وبهذا يشير تخيّر هذه المصطلحات إلى قراءة معيّنة للحرب فهي مجرّد غزو يراد منه غنيمة، ولا علاقة لها بالدمار الشامل أو تحرير أحد أو نشر الديمقراطية..

(2) بعد تاريخيّ قوميّ: وُظِّفت فيه مصطلحات مستمدّة من التاريخ العربي الإسلامي، وهي مصطلحات موجّهة إلى جيش الاحتلال لتصفه بأسوإ ما يوجّه إلى إنسان كريم، ولكن بمنظار عربيّ، كمصطلحات: العلوج، والتاتار، والطراطير..

(3) بعد حضاريّ ثقافيّ: نعرف أنّ هذه المصطلحات تمثّل للجميع ماضيا استعماريّا مرتبطا بالغرب، ومعبّرا عن حقيقته، كمصطلحات: احتلال، استعمار، امبراطورية، جرائم عنقودية..

وهكذا تبدو اللغة الوجه الآخر للصراع، فاختيرت بعناية المصطلحات المناسبة لكلّ مرحلة ولكلّ حدث. فقد أعطت أمريكا لنفسها عدّة أسماء لإخفاء أهدافها الحقيقية من الحرب فتعلّلت بالسلام العالمي، وحماية قيم الحرية والديمقراطية، ثم تراجعت للدفاع عن الحضارة الغربية فحسب، ثم تقلّص دورها أكثر ليقتصر على تحرير بلد واحد هو العراق.. ولكن لم تخرج إلى العلن المصطلح الحقيقيّ الذي يناسب سلوكها في العراق إلاّ بعد انتهاء الحرب وهو مصطلح (الاحتلال)، فقد تبيّن أنّ تسمية الاحتلال باسمه الحقيقيّ أصبح ضرورة لتمكين أمريكا من الاستئثار بإدارة العراق باعتبارها دولة محتلّة، ومنع الأمم المتّحدة من التدخّل فيه.

والغريب أن أمريكا تفرض المصطلح بنفس الوسيلة التي تفرض بها مفاهيمها وهيمنتها الفكرية والمادية على العالم. فإنّ هذا المصطلح لم يكن جائزا قبل الحرب أو حتى أثناءها. فقد كانت تمهّد للحرب بمصطلحات غائمة يمكن أن يقبلها منطق العصر: كنزع أسلحة الدمار الشامل، وتطبيق الشرعية الدولية.. وعندما فشلت أمريكا في إيجاد المبرّر الرئيسيّ للحرب وهو (أسلحة الدمار الشامل) أسقطت هذا المصطلح لأنّه لم يعد ذا قيمة وعوّضته مصطلحات المقابر الجماعية، وتحرير العراق، والتخلّص

من الدكتاتورية والبعثية..

إنّ المجموعة الدولية التي تدّعي الانصهار في مفهوم العالم الواحد ليست في الحقيقة مجموعة واحدة منسجمة بل إنّ الخلاف يشقّها جوهريّا، إلى درجة أنّ جميع المصطلحات المرصودة في هذا العمل يقابل دلاليا بعضها بعضا بحيث يبدو لا وحدة بينها في الرّؤية أو الهدف المشترك: فالتحرير عند البعض هو احتلال عند البعض الآخر؛ والشرعية عند البعض هي انتهاك للقانون؛ والتفتيش هو شرعنة للحرب إلخ.. وقد رأينا أن نعالج نماذج من هذه المصطلحات برؤيتين غربية وعربية:

1-2-2 -تحليل نماذج من معجم الحرب:

لا بدّ من الإشارة أولا إلى أنّ التصدّي لمثل هذا العمل اللغوي بغية فهمه يتطلّب اعتبار اللغة وحدة ينصهر فيها المعنى بالفكر الذي أنتجه. ولذلك سنرى أنّ عملية الفهم تستدعي عدم الفصل بين إنجاز اللغة وتأويلها.. فإنّ اللغة تتجاوز كونها مجرّد أداة تواصل محايدة، لتمثّل واقعا ذهنيّا لا يمكن النّفاذ إلى أعماقه إلا عن طريق المتكلم، فهو الذي يجسّد الغرض من الخطاب اللغوي ويجعله مركز تقاطع بين اللغة والمتكلم ولهذا فالعملية التأويلية تقوم على محاولة إدراك المعنى من هذين الطرفين: تأويل معجمي، وتأويل نفسي:

يسعى الأول إلى فهم الكلام انطلاقا من بنيته المعجمية والنحوية؛ ويسعى الثاني إلى إدراك الفكر وما يمثله من نشاط ذهنيّ أو نفسيّ.. وهو ما يسمح بفهم المتكلّم فهما يتجاوز الظاهر اللغويَّ إلى تمثّل النتيجة النظرية لإبداع اللاشعور.

ذلك أنّ غاية التأويل هي تجاوز اعتبار اللغة نظاما علاميًّا مجرّدا، إلى محاولة فهم المتكلّم فهما مسبقا قائما على عوامل من خارج اللغة لا يعبّر عنها [illegible] المتكلم بطريقة مباشرة أو من خلال ما يعلنه، وربّما كانت الدلالات الحقيقية [illegible] في ما لا تقوله مفردات المعجم بمعانيها القارة. وإنّ قراءة عكسية تتّجه من مستوى

الباطن إلى مستوى الظاهر هي الكفيلة بفكّ الآليات التي تتحكّم في الشعور فنجد فيه المعاني المطموسة وارتباطها الوثيق بالعالم الخارجي. وهنا تبدو العلامة اللغوية غير مساوية لقصد المتكلم الظاهر، إنّها رمز ولكنّه شفاف ينمّ عمّا وراءه وليس مجرّد حقيقة[1].

ولكي يكتسب التأويل مشروعية قائمة على قواعد وشروط لا بدّ من إخضاع الممارسة اللغوية له بأركانها الثلاثة لبسط أوجه التضافر بينها للوصول إلى الغاية المنشودة من اللغة. وهو أمر ليس باليسير. وهذه الأركان هي:

-الباث، أي الاهتمام بعلاقة المتكلم بالكلام، وذلك بالبحث في مدى تعبير الكلام عن أهداف المتكلّم. أي هل تؤخذ اللغة بمعناها المعجميّ العام أم هي تلتبس بخصائص متكلّمها فتنحرف دلالاتها وفق نوازعه فلا تعبّر عن سواها؟

-الرسالة (وظيفتها السياسية، عقيدتها الفكرية، ظروفها العسكرية..) أي النظر في علاقة المتلقي بالكلام: وذلك بالبحث في مدى قدرة المتلقي على العثور على أدلّة تساعده على إدراك الوجه الحقيقي الذي ينبغي أن تؤوّل إليه مختلف الاستعمالات اللغوية، فيتمكّن من ولوج عالم المتكلم فينزّل اللغة ضمنه ليكشف دلالاتها البعيدة وفق مساحة فكرية يسمح فضاء اللغة بفتحها؟

-المتلقي (العربي والأجنبي) أي أن النظر في علاقة اللغة بالواقع: وذلك بالبحث في مدى استئثار العالم الخارجي بدور حاسم في تحديد دلالات المفردات؟ وهذا يقتضي البحث بالتوازي عن الدلالات الخارجية ذات التأثير العملي في حقيقة الكلام، سواء اتّحدت هذه الحقيقة مع الواقع الخارجي أم اكتفت بتوافق مع قيم معيارية تنشئها بيئة المتكلم؟

لا شكّ أنّ الحرب لم تجر على أرض الواقع من أجل تلك الأهداف المعلنة فحسب، بل كانت تجري بالتوازي في مستوى العقل والفكر والقيم.. إنّها محاولة

(1) - نفسه، ص44.

للتغريب وتبديل المفاهيم وإرساء ذاكرة جديدة. رغم محاولة وسائل إعلام مستقلة أن تصنع وسط معارك السيطرة العسكرية واللغوية صيغا جديدة للالتفاف على الواقع الجديد والتعايش معه، ففشلت في وقت سيطر فيه الإعلام الغربي سيطرة منهجية على عقل المتلقي وجوارحه في الغرب وحتى في الشرق.. وبدت اللغة لا تحيل إلا إلى أسلحة الدمار الشامل والإرهاب ومعاناة الأكراد والشيعة والمقابر الجماعية وتهديد الجيران والأمن العالمي.. وبين النموذجين الغربي والعربي ضاع الحاضر، أي ضاعت اللغة لحساب لغات أخرى، وانتهى الأمر إلى فقدان الذاكرة.

إنّ اللغة اليوم تبدو جزءا من أنساق الفكر المنتصر لا بتغيير القناعات بل بتحريف الدلالات، وهي لدى الشعوب ترقى إلى المقدّسات: فالعلوج والطراطير والمرتزقة.. مفردات متزمتة، ومفاهيم مرفوضة قد تخلّت عنها العربية منذ أن انفتحت على زمن العولمة..

أما الاحتلال والمقاومة وما شابهها فقفز على الحقيقة المعجمية واللغوية لأنّ مقاومة الاحتلال إرهاب، فإنّ المحتلّ الذي جاء لتغيير كلّ شيء لا يعجزه تغيير الدلالة.. وهكذا تخلّت اللغة عن ذاكرتها الخاصة لحساب ذاكرة الغرب. وهو حلّ يعكس أزمة المتكلم واللغة والمتلقي معا.. ويدلّ على مدى انهيار الواقع وتهافت أدواته وهو ما أعطى لبعض قوى الرفض من الداخل (أو ما يطلق عليه مصطلح متطرف، أو أصولي) أملا في إعادة صنع ذاكرة جديدة.

إنّ المعجم السائد اليوم لا يتحمّل أعباء هذه المصطلحات الموجَّهة، إنّه يستوعبها دون أن يتبنّاها.. فكان لا بدّ من التأويل لمعرفة ما وراء الخطاب. وهذا يستدعي بدوره الاستعانة بمقولات الدلالة المقامية والسياقية وحتى النفسية والاجتماعية لتحليل الخطاب والكشف عمّا توارى في خضمّه من إيحاءات تتخطّى مكونات اللغة الظاهرة لاستجلاء ما وراء النسيج اللغوي من بنى ذهنية ممّا قد يمثّل لبّ الرسالة.. وسننظر على سبيل التمثيل في هذه النماذج بين مجرّد القراءة وضرورات التأويل:

أ- **مصطلحات غربية المنشإ** (الحرب، أسلحة الدمار الشامل، الحرب الاستباقية):

1- «الحرب على العراق»: هو ترجمة لمصطلح (la guerre contre L'Iraq) قد تحوّل اليوم إلى تعبير اصطلاحيّ، لكنّه دلاليا يؤدّي إلى خلط، فرغم بداهته الظاهرة، هو مصطلح غريب، وعلينا أن نحلّل الأهداف من هذا الخلط المقصود الذي يؤدّيه هذا الانزياح المعجمي الدلالي. إنّ الأصل ألاّ نعدّي الفعل حارب بحرف الجرّ (على) بل إنّ صيغة (فاعل) (حارب) تفيد بذاتها المشاركة في الحدث بين طرفين على الأقلّ. لكنّ صيغة (الحرب على..) أخذت تنتشر منذ زمن.

ويكثر استعمالها خاصة في الحروب التي تدور من طرف واحد وعلى خصم غير عاديّ، إنّه أقرب إلى الظواهر الفتّاكة التي تهدّد مصير البشرية.. فيقال: الحرب على الجوع، والحرب على الجهل، والحرب على الأمية، والحرب على التخلّف.. حتى ظهر مصطلح الحرب على الإرهاب، ومنه ظهر مصطلح: (الحرب على العراق). ويلتقي مصطلح (الحرب على الإرهاب) مع مصطلح (الحرب على العراق) في عدم وضوح الدلالة لعدم وضوح العدوّ والهدف، فتستمرّ الحرب تحت عناوين ومحفّزات مختلفة، تختارها الإدارات الأمريكية المتعاقبة، بشكل يناسب استراتيجياتهم في كلّ مرحلة.

وقد قصد مروّجو هذا المصطلح إلى عدم تحديد العدوّ تحديدا دقيقا، لأنّ في ذلك إفراغا لحجّتهم من مرتكزاتها، ففي تحديد العدوّ إنهاء للحرب بالضرورة. إنّ هذا المصطلح يبطن دلالات مقصودة تجاوز فكرة الحرب المعهودة بين طرفين إلى حرب ذات اتّجاه واحد بين القوى المادية الفاعلة في العالم والقوى المعنوية الرافضة لها. والعراق يمكن أن يمثّل خير نموذج للنظام المارق الطامح إلى رفض القيم الأمريكية والصهيونية. ورغم أنّه ليس الوحيد على القائمة الأمريكية، فإنّ البدء به راجع إلى كونه أكثر أضلاع «محور الشرّ» قابلية للغزو، بعدما تعرّض له من تدمير مادي ومعنويّ

حوّل طموحه المشروع إلى اكتساب وسائل المناعة العلمية والعسكرية إلى جريمة ضدّ الإنسانية.

2-أسلحة الدمار الشّامل: هذا المصطلح المكوّن من إضافة ونعت هو ترجمة للمصطلح الغربي (les armes de destruction massive) يبدو في ظاهره تسمية لمسمّى موجود بالفعل ولكنّه في الحقيقة يبطن تحويلا ذهنيّا لنظر المتلقي عن الحقيقة الجوهرية لمكوّنات هذه الأسلحة وهي: المواد النووية والكيمياوية والبيولوجية التي لا تكاد تخلو منها دولة غربية. لكنّها في الغرب لا تمثّل أسلحة للدمار الشامل بل هي إنتاج علميّ طبيعيّ يوظّف بحسب مجالات العلم توظيفا علميا وحضاريا ومدنيّا في خدمة الإنسانية.

غير أنّها عندما تنتقل إلى العرب ينبغي ترك التفاصيل واستعمال مصطلح موحّد تتحوّل فيه هذه المواد إلى أسلحة تضاف إلى الدمار وتنعت بالشمول. فكأنّه مصطلح صيغ للنظام العراقي في نطاق «شيطنته» أمام الغرب. بحيث لا تترك أمام المتلقي خيارا للتفكير في مصدره الغربي أو انتشاره في دول كثيرة، فينصبّ الاهتمام على خطر امتلاك الإرهابيين له، وبالتالي درجة تهديده للعالم المتحضّر..

3-الحرب الاستباقية: ويستخدم إلى جانب مصطلح آخر هو مصطلح «الحرب الوقائية» ترجمة للمصطلح الغربي «la guerre préventive»، وهو مصطلح لا عهد للعالم به في مجال العسكرية، إذ أنّ دلالة الاستباقية أو الوقائية هو توقّع الشيء والاحتياط لتجنّبه، بينما الأمر هنا ظنّيّ قائم على زرع الأوهام والشكوك حتى يقبل العالم بالأمر الواقع. لذلك يبدو أنّ وضع هذا المصطلح كان لغاية «شرعنة» الحرب بالمعنى المطلق وجعلها جزءا من استراتيجيات الساسة كلّما توجّسوا خيفة من أمر ما. وهنا نلاحظ مدى تطويع اللغة لترويج مفاهيم شديدة الخطورة على الأمن العالمي، فلا أحد ينكر فكرة الحمائية من الأمراض والكوارث وغيرها.. غير أنّ الغريب أنّ ذلك يتمّ بالدخول في ما هو أشدّ وأدهى من الكارثة وهو الحرب ذاتها. فكيف

يمكن الحديث عن حرب شرعية ليست لغاية الدفاع عن النفس. ومع تبيّن لا شرعية هذه الحرب أخذ الأمريكان يروّجون لمصطلحات أخرى كحماية الأمن والسلام العالميين، وحماية الشعب الأمريكي ودمقرطة العراق...

أمّا مصطلحات: «التفتيش»، و»كبير المفتشين»، و»رفع العقوبات»، و»برنامج النفط مقابل الغذاء»، و»الأغلبية الشيعية»، و»الأقلية السنية»ن و»تحرير العراق».. فمفاهيم تروّج لإظهار الحرب بمظهر العمل الإنساني..

ب- مصطلحات عربية المنشإ (علوج، طراطير، مرتزقة،):

وقد عملت وسائل إعلام عراقية وحتى عربية أحيانا على إبراز الوجه الحقيقي للحرب وصنّاعها مع استخدام مصطلحات مثل: الحرب المارقة، جماعة الخارجين عن القانون : الاستعمار المباشر، الإمبراطورية الأمريكية...

لكن برزت إلى جانب هذا التوجّه مصطلحات تركّز على الماضي وتستمدّ قيمتها وبعدها من التاريخ ولما كان عليه العرب من تفوّق في الزمن القديم. وهذه المصطلحات تعمل على التحقير من شأن الأمريكان والغرب عامة وردّهم إلى أصولهم القديمة في مقابل الاستنجاد بالنخوة العربية والتفوق العربي الإسلامي القديم. لذلك استخدم معجم كلاسيكيّ قديم يحيل في الغالب على إحياء الشعور بالعداء التاريخي للأمة بمفهومها العربي والإسلامي في محاولة لتكريس الصراع من زوايا: عقائدية: مسلمون/مسيحيون ويهود؛ وفكرية: شرق عربي/غرب صهيوني؛ وحضارية: اعتزاز بالماضي/شتات بلا ماض..

1-علوج: جاء في معجم «المحكم»: «علج: كلّ ذي لحية.. واستعلج الرجل: خرجت لحيته وغلظ واشتدّ. وعلج العجم منه.. والعلج: حمار الوحش لاستعلاج خلقه وغلظه، وكلّ صلب شديد.. واعتلج القوم اصطرعوا وتقاتلوا. واعتلجت الوحشث: تضاربت وتمارست والاسم العلاج.»[1] لا شكّ أنّ لمفردة «علج» بعدا

(1) - انظر: المحكم، الجزء الأول.

تاريخيا عمل مستعملها على استحضاره. وهذا البعد يذكّر بحالة من التفوّق العربي مقابل الأجناس الأخرى. ففيه ظلال دلالية تحيل على التحقير والاستهجان الذي كان العرب يمارسونه على «الكفّار» من أبناء العجم ممّن لا يرون فيهم سوى استعلاج خلق وغلظ شبيه بغلظ العلج أي حمار الوحش وكلّ عيْر وحشيّ إذا سمن وقوي. فهو لا يصلح إلا للأعمال الشاقة. وهي صفات وإن دلّت على الصلابة والشدّة (حتى اشتقوا منها فعل عالج: أي مارس ودافع)، فإنّها بخلوّها من قيم الشجاعة والمروءة والشرف، غير ذات جدوى، ولا تخرج صاحبها من عداد الهمجية البهيمية. كما أنّ انعدام العقل وهو عند العرب قيد للجوارح من كلّ زيغ هو الذي يفقدها بعدها الإنساني، لأنّ توظيف القوة في غير مكانها استهتار..[1].

وهذه معالجة صحفية لمفردة علوج، ظهرت في جريد «الشروق» التونسية[2] تحت عنوان: «العلوج في شوارع بغداد: سلاح خلّفه الصحّاف»: «العلوج» .. التحية العراقية «المهينة» للأمريكان» يبدو أنّ لفظة علوج التي أخرجها الصحاف من مقابر اللغة لتلعب دور البطولة في معاركه الإعلامية.. أصبحت اليوم «السلاح السلمي» الوحيد الذي يملكه العراقيون الضعفاء يفرغون من خلالها بعض شحنات الاحتقان عند رؤية الجنود الأمريكان.. إنّها كلمة «العلوج» التي يبدو أنّها لن تغيب في المستقبل عن قاموس العراقيين وفي استعمالاتهم اليومية. أصبحت كلمة «العلوج» لفظة دارجة جدّا يتهامس بها طلاب الجامعات عندما يلمحون جنودا أمريكيين ويكتبها الأطفال على العربات العسكرية الأمريكية خلسة ويغمغم بها سائقو سيارات الأجرة الساخرون عندما تسدّ القوافل العسكرية الأمريكية طريقهم. ويبدو أنّ الجنود الأمريكيين لا ينتبهون إلى لقبهم التهكمي. فالأطفال العراقيون يبتهجون بمناداتهم باسم «العلوج» وهم يبتسمون ويلوحون فتنطلي على الجنود الأمريكيين الابتسامات المخادعة ويردون

(1) - انظر: لسان العرب.

(2) - الشروق، 2004/1/8.

على التحية بمثلها ظنّا منهم أنّها كلمة لطيفة.

ورغم كثرة الاجتهادات والتفسيرات التي رافقت استخدام الصحاف لكلمة (العلوج) أثناء الحرب، فقد ترجمها البعض إلى الإنغليزية بكلمة «عدوّ».. وبعضهم قال: «العلج» هو صغير الحمار، وقال آخرون هو خنزير الصحراء.. ولم يكن أحد متأكّدا فقد كانت لفظة ميتة قبل الحرب»، لكنّ العراقيين أكثر الناس اتّفاقا اليوم على معناها العصري، وهو «الجنود الأمريكان». فقد أصبحت الكلمة شديدة الرواج لدى العراقيين وشاعت حتى بين الذين يدعمون الوجود الأمريكي..

2-الطراطير: جاء في لسان العرب في مادة (طرر): «والطّرطور: الوغد الضعيف من الرّجال، والجمع الطراطير». واستشهد ابن منظور على ذلك ببيت لابن الأعرابي:

قد علمتْ يشكُرُ مَنْ غلامها إذا الطراطير اقشعرّ هامُها

علما بأنّ الوغد هو: الأحمق الدّنيء الرّذل، والضعيف الجسم، وخادم القوم بطعام بطنه [1].

كما يقال أيضا: «رجل طرطور أي دقيق طويل». والطرطور: قلنسوة للأعراب طويلة الرأس.

يمكن أن نعتبر هذه الكلمة كلمة ميّتة أيضا قبل الحرب، ولا شكّ أنّ الوزير الصحّاف تعمّد استعمال معجم عربيّ قديم غايته استحثاث الهمم العربية بالاستناد إلى رصيد قيمي وثقافي موروث يخاطب ما تبقّى من ضمير عربيّ حيّ قبل أن يخاطب الفكر الذي شلّه التفوّق الأمريكي. وهذه ظاهرة لغوية مهمّة تأسّست عليها استراتيجية الخطاب السياسي العراقي، فهو خطاب يقوم على خلق حوافز دينية وقومية وإنسانية بغية تحقيق ردود فعل قائمة على رفض الانحدار الأخلاقي والقيمي الذي آل إليه السلوك الغربي وخاصة الأمريكي.

(1) - انظر: المعجم الوسيط، مادة وغد.

ولعلّ أبرز سمات هذا التمشّي تتمثّل في المقدرة على توظيف النّقد في سياق هزليّ. فبينما الحرب تأتي على الأخضر واليابس، يصف وزير الإعلام العراقي آنذاك أعتى جيوش العالم بالضعف والدناءة والغباء والحمق وخدمة الآخرين مقابل إشباع البطن وحسب، كلّ ذلك من خلال مفردة واحدة ربّما لم يكن أحد غير الصحاف يوليها عند إطلاقها أول مرّة كلّ هذه الأبعاد الدلالية.

لكنّ إصرار الصحاف على تكرارها تحفيز للسامع ودعوته إلى التمعّن في حقيقة هذه الحرب والقائمين بها. إنّهم يختفون وراء ادّعاءات ولا يجرؤون على التصريح بدوافعهم الحقيقية.

3-المرتزقة: جاء في معجم «المحكم» في مادة (رزق): «رزقه الله رزقا حسنا: نعشه.. وارتزقه واسترزقه: طلب منه الرّزق. وأرزاق الجند: أطماعهم.. والرّوازق: الجوارح من الكلاب والطير..» أمّا في المعجم الوسيط فقد ظهرت دلالة محدثة فقد جاء فيه: «المرتزقة: أصحاب جرايات ورواتب مقدّرة. والجنود المرتزقة: هم الذين يحاربون في الجيش على سبيل الارتزاق، والغالب أن يكونوا من الغرباء»[1].

يبدو أنّ ما انتهت إليه دلالة «الطراطير» من إشارة إلى خدمة الآخرين مقابل الحصول على الأكل، هي التي أوحت بمصطلح «المرتزقة»، وهم الغرباء الذين يحاربون بدلا عن أسيادهم بلا قضية ولا رسالة ولا هدف، وهم في النهاية كالكلاب أو كالطيور الجارحة، بينما يروّج الإعلام الغربي والأمريكي تحديدا لرسالة «الجنديّ المحرّر» المدافع عن حقوق الإنسان والحامي للحريات.

وفي المقابل يركّز الإعلام العراقي والعربي على فارق ما بين غزاة غرباء بلا رسالة، وشعب رافض للهيمنة يدافع داخل وطنه عن استقلاله. إنّ مهمّة الكشف عن هذه الحقائق ليست بالأمر الهيّن لصعوبة تغيير مواقف السامعين بمجرّد خطاب مباشر، فيصبح من الضروري تبليغ الرسالة بأدوات أكثر تأثيرا تفضح الحقائق دون أن

(1) - انظر: المحكم، الجزء السادس؛ ولسان العرب، والمعجم الوسيط مادة (رزق).

تحكم عليها بشكل مباشر.

لذلك بدا استخدام مصطلح «مرتزقة» مليئا بالمعاني الحافة والظلال الدلالية تقف على طرفي نقيض مع مصطلح «الجندي المحرّر»: فالجندي الأمريكي: غريب مأجور، خدمته العسكرية استرزاق، وحربه غزو، وهدفه الحصول على مكاسب مادية؛ و»الجندي المحرَّرُ»: وطنيّ، خدمته العسكرية واجب، وحربه دفاع عن الوطن، وهدفه الحرية..

5-الخاتمة:

ينبغي لنا بعد ما وفّرت لنا هذه الدراسة الموجزة من حقائق كافية عن هيمنة ثقافة العولمة على خصوصيات الثقافة المحليّة، وخاصة منها الجانب اللغوي، أن نتبيّن انعدام التبادل المتوازن بينهما في الثقافتين الغربية والعربية. فلا معنى للحديث عن عولمة الثقافة في ضوء الأحادية القطبية لأنّها ستمنع التعبيرات المحليّة بتنويعاتها وخصوصياتها من أن تجد لها مكانا في ظلّ منافسة جبّارة لا مكان فيها إلا للقويّ. ولن يكون أمام الثقافات المحلية إلا القبول بما يسمى «التأثير» لكنّ هذا التأثير في ظلّ هذه المعطيات لن يكون إلا ضربا من الغزو تتهدّده كثير من المخاطر: فهو كما يتجلّى في الثقافة العربية ليس متوازنا. إذ لا نجد تأثيرا قائما على تفاعل خلاّق بين الجانبين، إنّما نجد أنّ الخطاب الثقافيَّ العربي قد غلّب المضامين الغربية وتخلّى أو كاد عن المضامين العربية لهذه المصطلحات كما كوّنها الفكر الذي استعملها في الثقافة العربية. وفي صدام المفاهيم هذا زالت الدلالات العربية وعوّضتها الدلالات الغربية، وهو أمر أفضى إلى ازدواج بين ما يقتضيه المعجم وما يقتضيه الاستعمال المعاصر. وذلك بسبب ما تمارسه ثقافة المركز وما تتقبّله ثقافتنا العربية دونما تمحيص ودونما تفاعل إيجابيّ مع الآخر. وهو ضرب من سيادة منطق القويّ واستسلام الضعيف له، لن يفضي إلى حوار حقيقيّ[1]، ولهذا ستظلّ الشّعوب ترفضه وتعتبره غزوا ووجها آخر

(1) - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص117.

من وجوه الهيمنة.

أما من الناحية اللغوية فليست الدلالة شيئا موضوعيا تماما، كما أنّها ليست شيئا ذاتيا، إنّها في حالة تغيّر مستمرّ. فإنّ العلاقة بين الباثّ والمتلقّي وما يُفترض بينهما من تأويل علاقة غير ثابتة في الزمان والمكان بل هي دائمة التطوّر. على أنّ اللغة هنا ليست مجرّد أداة لتبليغ رسالة وإعطاء معنى للأشياء، بل هي الرسالة نفسها، فاللغة ليست وسيطا بين العالم والإنسان، ولكنّها ظهور العالم وانكشافه بعد أن كان مستترا. إنّ اللغة هي التجلّي الوجوديُّ للعالم تعبّر عن المعنوية القائمة بالفعل بين الأشياء. وبما أنّ اللغة هي مجال الفهم والتفسير، فالعالم يكشف نفسه للإنسان من خلال عمليات مستمرة من الفهم والتفسير[1].

إنّ تأويلنا لمفردات اللغة سواء تلك التي تنتمي إلى الماضي (وهي أغلب المصطلحات التي أنشأها الإعلام العراقي) أو تلك التي تنتمي إلى الحاضر (وهي أغلب المصطلحات التي أنشاها الإعلام الغربي أو الأمريكي تحديدا) يؤدّي بنا إلى فهم أفضل. وهكذا قد يفهم الإنسان اللغة أفضل من خلال التاريخ باعتباره عملية مستمرّة من الفهم والتأويل، فإن لم يكن له ذلك السلاح عجز. وهكذا تتمّ عملية الفهم على أساس الانطلاق من المشترك اللغوي وتجربة المتكلم وكذلك على أساس المشترك بين الماضي والحاضر. ذلك أنّ للماضي وجودا مستمرا في الحاضر والحاضر يدرك الماضي من خلال التجربة الذاتية[2].

ولهذا لاحظنا تركيز المصطلحات الأمريكية على الحاضر، فهي مصطلحات حديثة ذات أبعاد مستقبليّة توحي بمدى القلق على مشروعها العالمي وبمدى التزامها بحماية مصالح شركائها، بينما تطغى على المصطلحات العراقية نزعة ماضويّة تؤكّد على أحقاد غربيّة معلومة في التاريخ وشموخ عربي وإسلامي رمزت له بغداد في صبرها وصمودها أمام «التاتار» ماضيا وحاضرا.

(1) - أبو زيد: إشكالات القراءة، ص32.

(2) - نفسه ص28.